أمانة التبليغ
تأصيلا وتنزيلا

أمانة التبليغ
تأصيلا وتنزيلا

الدكتور مصطفى بن حمزة

أمير المومنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الأستاذ أحمد التوفيق
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

يذكر الأستاذ مصطفى بن حمزة في الصفحة الحادية والثلاثين بعد المائة من هذا الكتاب أن «المتأمل في واقع الأمة الإسلامية لا يفوته أن يلحظ تفاوتا كبيرا وتباينا واقعا بين ما يعتقده المسلمون وما يقولون من قيم سامية وما يؤمنون به من مبادئ راقية وبين ما يعيشونه من واقعهم، وهو واقع يعج بالتناقضات وبالاختلالات في السلوك المدني»، ثم يقول: «وهذا يفرض على العاملين التقاط القيم والمبادئ التي وردت في السنة وإحالتها إلى قيم صالحة تقود الحياة وضخها في الواقع الاجتماعي».

إن هذا التشخيص واضح وضوح الشمس في عز النهار، ولكن ثقافة النقل تحكم ضميرنا الخائف، فتجدنا بحاجة إلى هذه التنقيبات في الآثار وحواشيها ونحن نتلمس الضوء، وإذا جاء التنبيه من جهة نأنس

بها سهل علينا أن نرنو إلى الأعلى لنرى الشمس، ومشروع العلماء في التبليغ بحاجة إلى هذا الدعم الصريح.

لهذا الغرض، على ما يبدو، ألف الأستاذ هذا الكتاب في موضوع التبليغ والمؤسسة العلمية تتهيأ لإطلاق برنامج يصب في التنزيل الميداني لتبليغ الدين بغاية إصلاح التدين واستثماره في الحياة على أساس إقناع المتلقين بمصلحتهم في الاهتداء والاتباع.

والأمر الواقع يؤكد أن المؤسسة العلمية في حاجة إلى التبين والتبيين في هذا الأمر، لأن الناس من رمد العوائد، وقد طال عليهم الأمد على أساليب منومة وإن ظلت عقيمة، عز عليهم تشخيص الحال واقتراح العلاج العملي للتفاوت بين الدين والتدين في أحوال المسلمين.

ومثل هذه الوثائق إسهام في شرح مشروع العلماء لأجل «تسديد البليغ»، سيما وأن المعنيين هم كل الأمة، وفيهم من يتعين أن يزداد فهما لمهمته واقتناعا بتأصيلها وإدراكا لعضوية أوصالها وبنية أنسجتها، وهؤلاء هم كافة العلماء ومن يتكلمون في الدين، أما عامة الناس فهم من ينبغي أن يفهموا الفرق بين ما هو جار من الكلام في الدين بثمرات قليلة، وبين هذا الذي تريد المؤسسة أن تباشره من التسديد لغاية الإيقاظ والتغيير.

يأتي هذا الكتاب، إذن؛ لتوطئة هذا التمهيد بما ورد فيه على سبيل التأصيل من شرح مضمون التبليغ وذكر آليات النجاح فيه وشروطه

استنادا في ذلك إلى ما جاء في القرآن وعمل الرسل والأنبياء. أما في باب التنزيل فقد ذكر أن هدف التبليغ هو إسعاد الإنسان، ولذلك وجب على المبلغين أن يتوسلوا لبعض المدعوين من جهة الإقناع بمصلحتهم الشخصية في الاستجابة والاتباع.

ومن البلاغة في البيان أن الأستاذ المؤلف ختم بذكر أمور في صميم التسديد ولكنها بسبب عدم التمييز بين الأهم والمهم، وبسبب سوء مراعاة المقاصد، ظلت غائبة من خطاب الوعظ، ومنها على سبيل المثال الطبيعة الشرعية لاحترام القانون، وسمو الحفاظ على المودة داخل الأسرة بعيدا عن العنف ضد الأزواج، ومنها مراعاة حرمة البيئة، ومنها تجنب التبذير في جميع النعم، وعلى قياسها يمكن وضع الأصبع على مئات الجوانب التي تتعين فيها الملاءمة بين العقل والنقل، لأن الإعاقة يمكن أن تحدث من هذه الجهة أو تلك.

من هنا تأتي وجاهة إشاعة مضمون هذه الوثيقة وإنتاج وثائق مماثلة قاصدة الموضوع من أجل المضي، في أقرب وقت ممكن، إلى التجربة الميدانية المجددة في باب التبليغ، وهي التي يتعين، قَبْلا، أن تستأثر مباشرتها ورصد نتائجها بالكلام حول الدين، استشرافاً لسبل الفلاح وتعميقا للتشخيص واختبارا لآليات التدخل التي تتطلبها هذه المهمة.

بين يدي البحث
حياة الرسول مساحة زمانية للتبليغ

منذ البداية كانت دعوات القرآن للرسول ﷺ إلى أن ينهض بأمانة التبليغ، فكان من أول ما تلقاه عن ربه قوله تعالى:

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [سورة المدثر، الآية 1].

ثم خوطب في آيات عديدة بوجوب أداء أمانة التبليغ، ومن تلك الآيات قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [سورة المائدة، الآية 69].

ثم إن حياة رسول الله ﷺ ظلت كلها امتثالا وتنفيذا لدعوة التبليغ التي تلقاها عن ربه.

حتى إذا جاءت الإشارات القرآنية مُشْعِرَةً بانتهاء زمن الرسالة وكمال التنزيل في قول الله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة 4].

وحينذاك علم النبي ﷺ أنها نهاية حياته، لأن حياته كانت مرتبطة بنزول الوحي وتبليغه إلى الناس، وبما أن الوحي قد تم، فإن مناط حياته صلى الله عليه وسلم وداعي بقائه على قيد الحياة قد انتهى.

وحينذاك أشهد الرسول ﷺ من حضر معه من الصحابة حجة الوداع وطرح عليهم سؤالا تقريريا عظيما فقال: هل بلغت؟ فأجابه الصحابة: اللهم نعم.

وبعد ذلك أشهد النبي ﷺ ربه على أنه أدى الرسالة وأتم التبليغ، ثم قال: اللهم فاشهد.

وبهذا كانت المسافة الزمانية الفاصلة بين قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

[سورة المائدة، الآية 69].

وقول الرسول ﷺ: اللهم فاشهد. مسافة زمانية معمورة ومشغولة بأداء واجب التبليغ.

وبعد وفاة النبي ﷺ ظل المسلمون في كل الأعصر يؤدون شهادة لنبيهم ﷺ بإتمام التبليغ على أحسن وجه، فكانوا يرددون في كثير من المناسبات وفي خواتيم القراءات قولهم: صدق الله العظيم وبلغ رسوله المصطفى الكريم، وهذه شهادة وإقرار من الأمة جمعاء بأنها ما عرفت في نبيها إلا التفاني في تبليغ الرسالة دون أي ونىً أو تقصير حتى لقي ربه.

القسم الأول

تأصيل أمانة التبليغ

التبليغ
في اللغة وفي الاصطلاح المتخصص

إن كلمة التبليغ شأنها شأن كل كلمة اصطلاحية، ليست مجرد لفظ لغوي عام ينتمي إلى المعجم اللغوي العربي، وإنما هي مصطلح علمي دقيق الدلالة، منحته المعرفة الإسلامية مفاهيم خاصة، فارتقت به إلى أن يصير مصطلحا له مدلولات علمية خاصة، ولهذا الداعي المنهجي فقد اقتضت معالجته الانتقال به من مستوى الدرس اللغوي العادي إلى مستوى الدرس الاصطلاحي.

ولهذا كان الاقتصار على دراسة كلمة التبليغ كما هي في المعاجم اللغوية العامة أمرا لا ينسجم مع متطلبات المنهج العلمي الذي لا يقنع بالوقوف عند مستوى الدرس اللغوي العام.

التبليغ
في مصادر التعاريف

إذا نحن تجاوزنا بحث الدلالة اللغوية العامة، وصرفنا النظر عنها، فإنه يتعين منهجيا العودة بالكلمة إلى تعاريفها في كتب الاصطلاح المتخصصة.

ونجد تعريفا للتبليغ في كتاب الكليات لأبي البقاء الكفوي، وفيه ذكر أن الإبلاغ نظير الإيصال، إلا أن التبليغ تُلاَحَظُ فيه كثرة ووفرة في المبلَّغ.

وكلمة البلاغ في النص القرآني، وهو الأصل، قد تفيد معنى الكفاية في الأداء، على نحو ما يؤخذ من قول الله تعالى:

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلاَّ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور، الآية 52].

أي إن التبليغ كاف في أداء الرسالة[1].

(1) **الكليات** لأبي البقاء الكفوي، ص 33، تحقيق عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، 1999.

ومن شواهد البلاغ، بمعنى الكفاية، قول الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا﴾ [سورة الأنبياء، الآية 105].

وقوله تعالى:

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة المائدة، الآية 69].

وقد جاء تعريف عبد الرؤوف المُناوي لكلمة التبليغ أكثر استيفاء لمدلولات الكلمة، فشرح كلمة البلاغ على أنها تعني الانتهاء، ثم قال: إن البلاغ هو التبليغ، نحو قوله تعالى:

﴿وَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾[1] [سورة آل عمران، الآية 20].

وعرض التهانوي لشرح مصطلح التبليغ، فذكر أن صيغة التفعيل التي وردت عليها كلمة التبليغ، تفيد معاني القوة والمبالغة في الفعل[2].

وقد كان علماء النص القرآني أكثر تحققا من مدلول كلمة البلاغ. فذكر أحمد بن يوسف السمين الحلبي أن البلاغ هو التبليغ، واستشهد بقول الله تعالى:

﴿وَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النحل، الآية 82].

(1) **التوقيف على مهمات التعاريف** لعبد الرؤوف المناوي، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ص. 83، عالم الكتب، 1960.

(2) **كشاف اصطلاحات الفنون**، محمد بن علي التهانوي، نسخة أحمد حسن، بسج 191/1، دار الكتب العلمية، بيروت 2006.

وبقوله:

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلاَّ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النحل، الآية 35].

ويقال بُلُغ الرجل يبلُغ فهو بليغ، إذا بلَّغ بلسانه كنه ما في ضميره[1].

ومن خلال استبطان هذه التعاريف وغيرها يمكن الانتهاء إلى أن التبليغ هو فعل إيصال وأداء إلى الغير، وهو في حالة تبليغ الإسلام يتطلب وجود الآمر بالتبليغ، وهو الله سبحانه وتعالى، كما يتطلب أيضا وجود المكلَّف بالتبليغ وهو الرسول أصالة، وعلى أثره يأتي ورثته من العلماء الذين يقتدون بفعله ويقومون مقامه في أمتهم، كما يقتضي التبليغ وجود طرف ثالث وهو المستقبل للخطاب وهو المقصود به والمستفيد منه.

وحقيقة التبليغ كما تحدث عنها القرآن تفيد أن الرسول ﷺ ليس له من التبليغ إلا أداء ما كلف بأدائه وبيانه، وذلك ما أفصح عنه قوله تعالى:

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلاَّ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور، الآية 52].

والتبليغ هو إخبار عن الله وتوقيع عنه، يقوم به الرسول أصالة ثم العلماء من بعده، ويبقى المحتوى المبلَّغ وحيا من الله تعالى، وليس للرسول فيه إلا التبليغ والتفسير والتوضيح.

(1) **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، السمين الحلبي، تحقيق د. محمد التونجي، 261/1، عالم الكتب، بيروت 1993.

ولهذا الاعتبار كان الدين في أصله وفحواه وضعا إلهيا، ليس للبشر فيه مدخل أو إضافة، وقد عرف العلماء الدين بأنه: وضع إلهي سائق لأولي الألباب باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات[1].

وتحدث سيف الدين الآمدي (ت 631) في كتابه أبكار الأفكار عن قضية انفصال الوحي عن شخص الرسول وعن صدوره عن الله تعالى، وأنه ليس منتجا بشريا فقال: إن النبوة موهبة من الله ونعمة منه على عباده، وحاصلها يرجع إلى قول الله عز وجل لمن اصطفاه من عباده: أرسلتك وبعثتك فبلغ عني[2].

واستنادا إلى هذا، فقد قال العلماء: أدلة الشرع معروفة فما لا دليل عليه لا يلتفت إليه ولا يحتاج إلى جواب، لأنه ليس بحجة ولا يشتغل بجوابه.

يذكر الشاطبي أن القياس وإن كان دليلا من أدلة الفقه، فإنه ليس من تصرفات العقول محضا، وإنما تصرفتْ فيه من تحت نظر الأدلة، وعلى حساب ما أعطته من إطلاق أو تقييد[3].

---

(1) **التوقيف على مهمات التعاريف**، عبد الرؤوف المناوي، ص. 168، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ط.1، 1990.

(2) **أبكار الأفكار**، سيف الدين الآمدي، 12/4، تحقيق أحمد محمد المهدي، دار الكتب والوثائق المصرية، 2002.

(3) **الموافقات**، لأبي إسحاق الشاطبي، المقدمة العاشرة، 133/1، تحقيق أ[ي عميرة آل سلمان، دار ابن عفان، الخبر، السعودية، ط.1، 1997.

وطبيعة الدين المستمد من الوحي هي التي تضمن احترامه وتكفل الانصياع الطوعي لأحكامه.

والرسل حين يؤدون للناس واجب التبليغ، فإنهم يقومون بأنبل وظيفة، ويُسْدون إلى الإنسان أكبر خدمة حين يعيدونه إلى موضعه وإلى مكانه الصحيح من علاقته بالله تعالى.

وعلى هذا فإن التبليغ ينشد مبتغى ساميا هو إرجاع للإنسان الشارد إلى ربه لينعم بهديه وليرفل في رحمته، حسبما أفاده الحديث القدسي الذي رواه مسلم وفيه: يقول الله تعالى: خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم[1].

وأخذاً من هذا، فإن علاقة الأنبياء بالله وبالناس هي علاقة وساطة لاسترجاع العباد وإعادتهم إلى ربهم باستعمال كل أساليب التبليغ المشروعة، يقول الله تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ ومحددا لطبيعة مهمته:

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة الشورى، الآية 45].

وأما ما يعقب التبليغ ويتلوه من استجابة وقبول، أو رفض وإباء فليس من مسؤولية الرسول في شيء، وإن كان الرسول في نفسه يتحسر ويتألم من الرفض والإباء، يقول الله تعالى:

﴿لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُومِنِينَ﴾

[سورة النساء، الآية 83].

(1) **صحيح مسلم**، كتاب الجنة وصفة نعيمها، الحديث 2865.

ويقول في بيان الأثر العميق على نفس الرسول ﷺ:

﴿فَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزِنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

[سورة الأنعام، الآية 34].

جانب التبليغ
في أركان العقيدة

لقد تقرر، في مباحث العقيدة، أن الإيمان يقوم على أركان وأسس كلُّها يحيل على معنى التبليغ وينتظمه.

فأول أركان الإيمان: **الإيمان بالله تعالى**، وهو الذي يوحي إلى الرسل ما يجب أن يبلغوه عنه وينقلوه إلى الناس.

والإيمان بالله تعالى هو الأصل في التبليغ، إذ إن الله هو الذي يوحي إلى الرسل ما يجب أن يبلغوه إلى الناس.

ومن أركان الإيمان كذلك: **الإيمان بالملائكة**، وهم سفراء الله إلى الرسل، يبلغونهم كلمات الله التي أخبرهم بها فيتولى الرسل تبليغ ما أنهته الملائكة إليهم.

ومن أركان الإيمان: **الإيمان بالرسل**، وهم بشر اصطفاهم الله وخصهم بحمل أمانة الوحي، وتبليغه على نحو ما تلقَّوه عن الله، وتدور حياة الرسل على التبليغ مبتدَءاً وختاما.

ومن مقتضيات الإيمان: **الإيمان بالكتب**، وهي وعاء الوحي الذي يبلغه الرسل إلى الناس، ومضامين الكتب هي ما كلف الرسل بتبليغه وتوضيحه للناس.

ومن أركان الإيمان: **الإيمان باليوم الآخر**، وهو محطة المحاسبة ثم المكافأة والمجازاة، بناء على التعامل مع الوحي الذي بلغه المرسلون من استجابة له أو إعراض عنه.

ومن أركان الإيمان: **الإيمان بالقضاء والقدر**، وهو مظهر سلطة الله وتصرفه في الكون، واستحقاقه لأن يكون هو وحده الموجه لفعل الناس والآمر والناهي لهم، حسبما بلغته الرسل ونطقت به الكتب.

وبناء على كل ما سبق، فإن التبليغ يدور مع أركان الإيمان، وهو حاضر جليٌّ في كل ركن من أركان الإيمان، حتى إنه لا يتصور أي ركن من أركانه عُرْياً عن رسالة التبليغ وخالياً منه.

التبليغ
في أعمال الرسل

إن جميع نصوص التبليغ تنقلها الملائكة، وتتلقاها الرسل، وتحفظها الكتب السماوية، ويظل الرسل هم المؤتمنين على نقلها وأدائها إلى الناس، بحكم اتصالهم الوثيق بهم واشتغالهم الدائم معهم، في نطاق سعيهم إلى استصلاحهم وردهم إلى رحاب الله.

ولذلك كان لعلماء العقيدة حديث طويل ومؤصل عن المواصفات التي يجب أن تتوفر في الرسل ليتمكنوا من التبليغ، ومن أداء النص المستوعب له، وهو النص الذي سماه الله تعالى: قولا ثقيلا، لما قال:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل، الآية 4].

التبليغ
باعتباره صفة ذاتية في الرسل

لقد فصل علماء العقيدة الحديث فيما يجب في حق الرسل، واختصر ابن عاشر تلك الصفات في نظم المرشد المعين فقال:

يَجِبُ لِلرُّسْلِ الكِرَامِ الصِّدْقُ أَمَانَةٌ تَبْلِيغُهُمْ يَحِقُّ

فإلى جانب اتصاف الرسل بالأمانة، فإنهم موصوفون بالتبليغ وعدم كتمان ما أوحاه الله إليهم.

جاء في كتاب «**عون المريد شرح جوهرة التوحيد**»:

«إن الله تعالى قد نزه رسوليه جبريل ومحمدا عليهما السلام عما يُضَادُّ مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضِّنة والبخل والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة. بقوله:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [**سورة التكوير، الآية 24**].

وقراءة بضنين تضمنت تنزيهه عن البخل، إذ الضنين هو البخيل، قال ابن عباس: ليس بخيلا بما أنزل الله. وقال مجاهد: لا يضِن عليهم بما يعلم.

أما قراءة بظنين فمعناها تنزيهُه عن الاتهام، إذ الظنين هو المتهم، والمعنى ما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص»[1].

ويقول اللقاني: «لو جاز عليه كتمان شيء لكتم الرسول ﷺ قول الله تعالى:

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [سورة الأحزاب، الآية 37].

وقوله:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [سورة عبس، الآية 1-2].

والمتأمل في نصوص القرآن يستبين أن الرسول ﷺ أدى الوحي وبلّغه كما أُنْزِلَ إليه، و لم يتصرف فيه باجتهاد من إخفاء أو إضافة.

وقد كان النبي ﷺ يؤدي الوحي الذي خوطب به في شأن يتعلق به هو بالذات، خصوصا في الآيات المصدرة بفعل «قُلْ» كما في قول

(1) **عون المريد شرح جوهرة التوحيد**، عبد الكريم تتان ومحمد أديب الكيلاني، 760/2، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق 1994.

الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة الكافرون، الآية 1].

وقد وردت كلمة « قُلْ» في القرآن في ثلاثة وتسعين ومائتي موضع. ولو صح أن يتصرف الرسول في شيء من القرآن لألغى فعل قل، لأنه موجه إليه أصالة.

وفي القرآن آيات علقت على اجتهادات اجتهدها الرسول ﷺ ووجهته إلى غيرها كما في قول الله تعالى:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [سورة التوبة، الآية 43].

وقوله:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنفال، الآية 68].

وكما في قوله تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [سورة عبس، الآية 1-2].

و لم يكن الأعمى عالما بأن الرسول ﷺ عبس أو قطب في وجهه، لأن المعني كان أعمى لا يبصر مَن عبس في وجهه.

وغيرها من الآيات التي بلّغها الرسول ﷺ على نحو ما تلقاها من الله تعالى.

احتياطات
لتحقق التبليغ

لما كان من واجب الرسل أن يؤدوا إلى الناس ما كُلفوا بتبليغه من الوحي، فإن ذلك يقتضي أن يسلَم الرسل من كل عارض يعوق أداء رسالة التبليغ، فلا يكون الرسول أبكم أو أصم، لأن ذلك يقطعه عن الاستماع والإسماع.

وعلى العكس من ذلك فإن المطلوب في الرسول أن يكون فصيحا بليغا ليؤدي ما أوحي إليه.

ولا يُعكّر على هذا قول موسى بعد أن كلفه الله بأداء الرسالة:

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [سورة القصص، الآية 34].

وليس في هذا القول اعتذار بسبب العجز عن التبليغ، لأن موسى أقر لنفسه بالفصاحة، وشهد لأخيه هارون بالأفصحية.

والفصاحة متوفرة فيهما معا، على أن موسى قد اعتذر اعتذارا آخر فقال:

﴿فَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾

[سورة القصص، الآية 33].

وهذا لم يكن هو وضع هارون عليه السلام. ولا يبعد أن يكون قول موسى وأخي هارون هو أفصح مني لسانا من قبيل تواضع العلماء، وإلا فإن الله تعالى قد كلف موسى أصالة بمخاطبة فرعون وهو سبحانه أعلم بفصاحته وأهليته للرسالة، و لم يكن هارون إلا ردءا مؤيدا ومصدقا لأخيه موسى، وهذا هو ما طلبه موسى من ربه حين قال:

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [سورة القصص، الآية 34].

ومن أجل أن يتمكن الرسول من أداء رسالة التبليغ، فإن الله لا يبتليه بأي مرض منفر كالجذام وفساد الرائحة ولا بأي عرض تنفُر منه النفوس، لأن القذارة وفساد الرائحة تنبو عنهما الفطرة السليمة وهما تبعدان الناس عن المتصف بهما، فلا يتمكن من أداء رسالته.

وتأسيساً على هذا، قال علماء العقيدة، إنه يجوز أن يكون لباس الرسول رَثا قديما، لكنه لا يجوز أن يكون قذرا متسخا، لأن القذارة تعافها النفوس وتنبو عنها الطباع السليمة.

وأخذاً من هذا رد العلماء كل المرويات الإسرائيلية التي تحدثت عن إصابة أيوب عليه السلام بأمراض منفرة وبجروح ودمامل متقرحة متعفنة.

التبليغ
من خلال الكتاب والسنة

إن القرآن والسنة النبوية هما الأصلان الأصيلان لاستقاء المفاهيم والأحكام الشرعية، وهما المصدران اللذان يجب اعتمادهما تحديدا في استخلاص التوجيهات التي تكفل أداء رسالة التبليغ أداء ناجحا تنتقل به البشرية من التيه والضلال إلى رحمة الإسلام.

لذلك كان لزاما استنطاق كل من الكتاب والسنة على حدة من أجل لملمة الكثير من مواصفات التبليغ الأمثل، ولمعرفة كيف يكون التبليغ الجيد في جميع الظروف.

التبليغ
في نصوص القرآن الكريم

لما كان التبليغ هو الوسيلة الناعمة والفعالة لهداية الناس وإعادتهم إلى ربهم، فقد اعتنى القرآن به اعتناء كبيرا، وتناولت قضاياه آيات متعددة، حملت كل آية منها دفقة مما يجب معرفته عن واجب التبليغ.

وبالإمكان الوقوف على بعض تلك الإشارات القرآنية، من أجل تمثلها وأجرأتها في عمليات التبليغ التي لا بد أن تكون ناجحة بمقدار ما يترسم المبلغون إشارات القرآن ويعتمدونها أسلوبا للعمل.

إن القرآن كان وما زال هو البلاغ الأقوى، كما وصفه بذلك قول الله تعالى:

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 54].

ويكفي دليلا على نجاعة البلاغ القرآني أنه أحدث تحولا عميقا في نفوس الناس، وانقلابا جذريا في سلوكهم، وتغييرا شاملا في مسار البشرية.

تبلیغ القرآن

مواصفات التبليغ القرآني

تنبَثُّ في نص القرآن الكريم آيات عديدة، تحمل حقائق قيمة عن التبليغ، يتعين أن يتخذها المبلغون صُوى نيرة مرشدة وعلامات مضيئة هادية، وتسعى هذه المحاولة إلى التقاط بعضها، وإلى وضعها أمام أنظار المشتغلين بالتبليغ.

وبالإمكان إبراز تلك الإشارات في هيئة حقائق موضوعية تتناول كل واحدة منها جانبا من متطلبات التبليغ كما يقررها القرآن الكريم.

الحقيقة الأولى من حقائق التبليغ

• نوعية لغة التبليغ في القرآن

إن المتن اللغوي، هو حامل المضامين ومؤديها إلى من يخاطَب به، والألفاظ حصون المعاني كما قيل.

لذلك فقد اهتم القرآن وهو كتاب البيان الأعلى بالجانب اللغوي الذي يجب أن يوظفه التبليغ، فلفت أنظار المبلغين إلى ضرورة انتقاء مفردات اللغة، وإلى وجوب مراعاة ألا تكون الألفاظ المستعملة في الخطاب ألفاظا تستفز مشاعر الآخر أو تثير أعصابه، حتى لا يتحول الخطاب من محاورة الأفكار إلى مخاصمة الأشخاص.

وسمة خطابات التبليغ في القرآن وهي النموذج الأسمى للتبليغ، أنها خطابات تعتمد لغة عالية، هي في القمة من الرفق واللطف والحميمية.

ومن شواهد هذا التوصيف أن الله تعالى قدم نماذج من خطابات الرسل التي توجهوا بها إلى من كانوا يدعونهم، فكان أغلب الرسل ينادون أقوامهم نداء حميميا فيقول الرسول منهم: يا قوم.

فقال نوح مخاطبا قومه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[سورة الأعراف، الآية 60].

قال هذا في معرض رده على قومه بعد أن أساؤوا إليه واتهموه بالضلال، ولم يزد على نفي تهمة الضلال عن نفسه فقال: ليس بي ضلالة.

وقال نوح لقومه، بعدما أجمعوا على نفيه وإخراجه من بلده:

﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ [سورة يونس، الآية 71].

وقال أيضا:

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي﴾

[سورة هود، الآية 29].

وقال هود مخاطبا قومه، وقد نعتوه بالسفاهة وضعف التفكير:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

[سورة الأعراف، الآية 66].

وقال شعيب:

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [سورة هود، الآية 93].

وقال موسى لقومه:

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾

[سورة الصف، الآية 5].

وقال موسى لقومه:

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلاَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

[سورة المائدة، الآية 23].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلاَحْزَابِ﴾ [سورة غافر، الآية 30].

وفي مناداة الرسل لأقوامهم: بيا قوم، مُسحة جميلة من الحميمية ومن دفء الانتماء إليهم وعدم الانفصال عنهم، ومن الرغبة في الإبقاء على الارتباط بهم.

و لم يستثن من هذا النوع من النداء إلا عيسى بن مريم الذي ليس له أب يصله ببني إسرائيل ليكونوا له قوما.

وفي جميع خطابات الأنبياء لم يتجاوز الأنبياء حدود الدفاع عن أنفسهم، ونفي ما اتهموا به من غير أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك من سباب أو شتيمة.

وقد ذهب القرآن مذهبا أبعد من هذا في التعبير عن متانة الصلة الرابطة بين الرسل وأقوامهم، فقال الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [سورة هود، الآية 83].

وهذه الأُخُوَّة هي أخوَّة الخَلْق والإيجاد، وقد تتعزز بأخوة الدين والسير على المنهج الواحد، وقد تتعزز بالاشتراك في النسب والميلاد، وهذا ما عبر عنه قول علي بن أبي طالب ﷺ: «**الناس صنفان إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخَلق**».

والقرآن يسجل أن حميمية الخطاب ورقته كانت سمة خطابات الأنبياء جميعهم، وذلك ما كان يوثق صلات الاحترام بينهم وبين الناس.

وقد ذكر القرآن أن إبراهيم خاطب والده بلفظ فيه تودد ورقة فقال:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾

[سورة مريم، الآية 40-46].

والفرق كبير بين خطاب إبراهيم الذي تكررت فيه المناداة بيا أبت التي تستثير لدى الأب عاطفة الأبوة القائمة بين الأب وابنه، وبين خطاب والد إبراهيم القاسي الذي لم يبال بأي علاقة إنسانية فهدد بالرجم ولوَّح بالهجران.

ويذكر القرآن أن يوسف عليه السلام قد خاطب أباه بمثل هذا الخطاب الرقيق، لما رأى رؤيا وأعلم بها أباه وقال:

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾

[سورة يوسف، الآية 4].

وأعاد يوسف العبارة ذاتها مرة أخرى، ولكن بعد زمن طويل فقال:

﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ﴾ [سورة يوسف، الآية 100].

وبمثل هذا الخطاب خاطبت البنت التي كانت ترجو أن يزوجها أبوها من موسى فقالت له:

﴿يَٰٓأَبَتِ اسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْٔجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

[سورة القصص، الآية 26].

والأكيد أن رقة خطابات الأنبياء وأبنائهم والمتابعين لهم، تختلف كليا عما ينطق به بعض من يوجهون الناس حاليا، فيتقصدون ألفاظا قوية يقصفون بها المخاطبين، وقد يصلون إلى درجة اتهامهم بالابتداع والضلال والنكوص عن سبيل الإسلام، لمجرد اختلاف حول شيء

ليس من أصول الدين وثوابته، وقد فاتهم ما قاله الإمام الشافعي في حكمته التي توجه بها إلى تلميذه يونس الصدفي بعد أن قاطعه يونس إثر خلاف بينهما، فقال الشافعي: يا أبا موسى: ألا يستقيم أن نكون إخوانا، وإن لم نتفق في مسألة[1].

من نماذج الخطاب الجميل الرائع الذي قدمه القرآن لمن يتصدى للتبليغ، أنه حينما تحدث عن خطاب الداعي الذي عزز الله به دعاة القرية التي بعث فيها رسولين ثم عززهما بثالث، وضم إليهم رابعا جاء من أقصى المدينة، فقال هذا الرابع لقومه:

﴿وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

[سورة يس، الآية 21].

وكأنه يوجه التعجب والملامة إلى نفسه رغم أنه كان يخاطب الآخرين، بدليل قوله: وإليه ترجعون. فكان هذا الالتفات والانتقال من مخاطبة القوم إلى الحديث عن النفس من الأساليب الجميلة في اجتذاب الناس إلى الفكرة.

وأسلوب الالتفات الذي تحدث عنه المفسرون، وفصل القول فيه علماء البلاغة، هو أسلوب عربي صميم ينتقل فيه الخطاب بحسب الأغراض والمقاصد، ومنه أن الله تعالى خاطب رسوله محمدا بقوله:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [سورة الضحى، الآية 3].

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي، 16/10، مؤسسة الرسالة، ط. 4، 1986.

فأسند إلى الرسول ﷺ ضمير المخاطب في ودَّعك، لأن التوديع فعل عادي يتم عقب كل اجتماع.

وعلى الخلاف من هذا فإن القرآن لم يسند ضمير المخاطب في قوله: وما قلى إلى شخص الرسول، لأن القِلى فيه معنى الجفاء والبعد، وقد يؤذي سماع ذلك الخطاب شعور الرسول ﷺ. ولذلك لم يسند الله ضمير المخاطب إليه. وسمي هذا الأسلوب اكتفاء.

وعلى العموم فإن أساليب الالتفات في الخطاب قد تولت بيانها كتب البلاغة العربية، وعرضها المفسرون، لكن أكثر الناس ومن ضمنهم المبلغون والدعاة الحاليون قد فقدوا الذائقة البيانية، وغابت عن علمهم معارف البلاغة العربية، لعدم رجوعهم إلى المصادر العلمية المرشدة إلى كيفية صياغة الخطاب الجيد الجميل.

من أمثلة وجوب سوق خطاب التبليغ إلى الناس بلغة جميلة لا تؤذي المشاعر أن الله تعالى أخبر أنه دعا موسى وهارون إلى إلانة القول لفرعون فقال لهما:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾

[سورة طه، الآية 43].

والمستخلص من الدعوة إلى إلانة الخطاب هو إبراز أن المخاطب لا يستجيب لمن أغلظ له القول أو مس مشاعره أو حط من كرامته.

وقد تنبه أصحاب الكهف إلى أن العنف القولي قد يثير الخصومة، فلذلك دَعوا من بعثوا به ليستطلع لهم الأخبار، ويشتري لهم الطعام أن يتلطف في القول، فقالوا فيما بينهم:

﴿فَابْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ [سورة الكهف، الآية 19].

وعبر تاريخ المسلمين تمثل المسلمون توجيه الإسلام إلى اختيار العبارات الجميلة الأنيقة الناضحة بمعاني الرفق والأخوة والمحبة، وأصل ذلك أن النبي ﷺ كان يلغي من التداول كل لفظ يوحي بمعاني العنف والجفوة والشدة والقسوة، ويُحِل محله لفظا آخر أنيقا يحمل معاني الرفق والإيجابية وحب الناس، فنهى عليه السلام عن التسمية بأسماء مثل حرب ومرة والعاصي والحَزْن وما شابهها[1].

وقد ذهب العلماء بعيدا في محو الألفاظ الشائنة وإسقاطها من التداول، ومنعوا مخاطبة الإنسان وتعييره بما يشير إلى نقص بدني فيه، كالأعور والأعرج إلا إذا كان اسما يرتضيه صاحبه. وقد استلهموا هذا من قول الله تعالى:

﴿وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَٰبِ﴾ [سورة الحجرات، الآية 11].

وقد ذكر شراح مختصر خليل المالكي في باب القذف، أنه لا يجوز

(1) **معجم المناهي اللفظية**، بكر أبو زيد، ص. 195، دار العاصمة، الرياض، ط. 3، 1996.

أن يخاطب المرء غيره بقوله: يا ابن الفاسقة أو الفاجرة أو يا حمار بن حمار. مع أن وصف الإنسان بالحمار لا يندرج في معنى القذف.

وأضاف الخرشي أنه إن قال يا حمار بن حمار يا فاسق أو يا فاجر أو يا شارب الخمر أو يا ابن الفاسقة أو يا آكل الربا أو يا حمار أو يا خنزير أنه يؤدب[1].

وأكثر هذه النعوت ليس فيها معنى القذف، لأن القذف يتعلق بتهمة الزنا أو بانقطاع النسب، لكن الفقه المالكي ألحق بالقذف هذه النعوت التي تسيء إلى إنسانية الإنسان حين تصفه بأنه حمار.

وأدل من هذا التوجيه وأوضح أن النبي ﷺ عاتب امرأة لعنت ناقتها، وأمرها أن تخلي سبيلها، وهو يعلم أن الناقة لا تدري ما يقال لها، ولا تتأذى به، ولكن النبي ﷺ أراد أن يؤسس لتداول الخطاب الجميل بدءا من مخاطبة الحيوان[2].

الحقيقة الثانية من حقائق التبليغ

• حاجة التبليغ الجيد إلى التفكير والتخطيط القبلي

من الحقائق المرتبطة بالتبليغ ما أفصحت عنه نصوص قرآنية كثيرة، أفادت في مجملها أن التبليغ عمل ذهني وفكري دقيق قبل أن يكون مجرد

(1) **منح الجليل شرح مختصر خليل**، باب القذف، محمد عليش، 286/9.

(2) **سنن أبي داود**، كتاب الجهاد، باب النهي عن لعن البهيمة، الحديث رقم 2561.

ممارسة بدنية تؤديها اللغة، ويعبر عنها اللسان.

وبسبب توقف التبليغ السليم على التفكير الجيد والنظر الثاقب الذي يستشرف العواقب، فقد كان من شرط النبوة الذكاء والفطانة، ما دام التبليغ يحتاج إلى عمليات ذهنية مختلفة، وما دام نجاحه متوقفا على وضع خطة ذكية محكمة للأداء.

ومن قبل أن يوجه الداعي خطابه إلى المستهدف به، فإن ذلك يتطلب منه التحقق من تقنيات الأداء الكفيلة بتحقيق النتائج الإيجابية المتوخاة، كما يتطلب الموقف معرفة الفروق النفسية والاستعدادات الفردية التي يتسم بها المدعوون، وشاهد هذا من تبليغ الرسول ﷺ أنه وإن كان يدعو الناس عامة، إلا أنه كان يحرص على إيمان أشخاص معينين، فدعا ربه قائلا: اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبَّهما إليه عمر[1].

ولا شك أن النبي ﷺ قد علم في الرجلين قوة في التفكير واستقلالا في الشخصية وصلابة في العزم وقدرة على تحمل أمانة التبليغ.

وحين كان الرسول ﷺ يبلغ قومه، كان في وعيه عليه السلام أن الناس ليسوا متساوين في استعدادهم لقبول الحق والإذعان له، وكان ﷺ على

(1) **الجامع الكبير** لمحمد بن عيسى الترمذي، الباب 48، باب مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الحديث 3681، م 56/6، تحقيق عواد بشار معروف، ط. دار الغرب الإسلامي، 1996.

علم بأن بعضهم قد حسموا أمرهم وأنهم لن يومنوا مطلقا، وهؤلاء هم الذين قال الله عنهم:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَآنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُومِنُونَ﴾

[سورة البقرة، الآية 5].

وقال عنهم:

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [سورة البقرة، الآية 6].

بل قد صرح هؤلاء بألسنتهم بأنهم لن يتركوا كفرهم فقالوا:

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَاتِنَا بِهِۦ مِنَ ـايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 131].

وهذا الاستعصاء على الدعوة رغم وضوحها وصوابها وقوة حجيتها، مرده إلى أن الرافضين لها كانوا واقعين تحت تأثير أناس آخرين مؤثرين في المجتمع، أو أنه كان لهم وضع اعتباري أو اقتصادي متميز، وكانوا يرون في إسلامهم وفي انتشار الدعوة تهديدا لمصالحهم وحرمانا لهم مما هم فيه من الحظوة الاجتماعية.

وعلى النقيض من هؤلاء المتأبين على الدعوة والرافضين لها، فقد كان هناك أناس آخرون تضرروا من أعراف الجاهلية ومن عسفها

وما تفرضه عليهم من قبوع في مستوى الدونية والصغار، ثم رأوا في الإسلام أنه ينقذهم ويخلصهم من أوضاعهم المزرية، وكانت هذه الفئة المقبلة على الإسلام تتكون غالبا من الفقراء والمضطهدين والعبيد الذين كان أسيادهم يسومونهم سوء العذاب، ويطرحونهم أرضا، ويُلهبون ظهورهم بالسياط، ومن هؤلاء بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وسمية أم ياسر، وزنيرة، وغير هؤلاء.

ومن شواهد مراعاة الواقع الفكري والنفسي للذين كان النبي يوجه إليهم الدعوة، أنه كان يركز على الذين يحتكمون إلى عقولهم وفطرهم السليمة، ولذلك قيل إن رسول الله ﷺ كان يدعو من يثق بعقله.

وكان أوائل الصحابة الذين استجابوا للدعوة على جانب كبير من الفطنة والتعقل والذكاء والقدرة على التمييز والتمحيص، وقد برزت رجاحة عقولهم في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته في مناسبات عصيبة احتاجت فيها الدولة إلى عقلاء يدبرون أمرها، ومن هؤلاء العقلاء الذين استهدفهم النبي ﷺ عمر بن الخطاب الذي عُرفت رجاحة عقله من خلال تصرفاته في حياة النبي ﷺ وحين آل أمر الدولة إليه.

الحقيقة الثالثة من حقائق التبليغ

• تعدد خطط التبليغ من خلال القرآن الكريم

من خلال تأمل آيات القرآن التي استعرضت جهود الرسل وصورت طرائقهم في التبليغ، يتبدَّى أن الطرائق كانت تتعدد حسب الظروف والمجتمعات التي يتوجه فيها الرسول إلى قومه، ويمكن تقديم نماذج يتأكد من خلالها أن طرائق التبليغ كانت فعلا متعددة ومتنوعة.

ومن صور التعدد والتنوع في صيغ الأداء، ما أقدم عليه إبراهيم عليه السلام وهو يدعو قومه إلى توحيد الله.

فقد كان قوم إبراهيم يعبدون أوثانا صنعوها بأيديهم، وأسبغوا عليها صفة الإلهية، وكان إبراهيم يريد أن يضعهم أمام حقيقة أن هذه الأوثان لا تصلح أن تكون آلهة، فتجاوز إبراهيم القول وانتقل إلى الفعل، فتسلل إلى معبدهم وحطم الأصنام، ثم وضع المعول في يد أكبرها حجما، فلما رأى القوم أن آلهتهم أصبحت جُذاذاً وقطعا متناثرة.

﴿فَالُوٓاْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[سورة الأنبياء، الآية 59].

ثم أرشد المخبرون القوم إلى أنهم سمعوا فتى يذكر آلهتهم بسوء يقال له إبراهيم، ويسحب عنها صفة الإلهية، فلما جيء بإبراهيم

سألوه فقالوا:

﴿قَالُوٓاْ ءَآنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾

[سورة الأنبياء، الآية 62].

فقال إبراهيم:

﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾

[سورة الأنبياء، الآية 63].

فأجابوه لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، فأقام بجوابهم الحجة عليهم، ومن ثم انتقل إبراهيم إلى استخلاص النتيجة فقال:

﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[سورة الأنبياء، الآية 66].

وبهذا الحوار الذكي استدرج إبراهيم قومه إلى الإقرار بالحقيقة وألزمهم الحجة، فانتقلوا إلى التهديد بالإحراق بالنار بل إنهم شرعوا فيه.

إن إجابة إبراهيم بأن الذي حطم الأصنام هو كبيرهم ليست على وجهها، وإنما هي من باب القول بالموجب، كما يعرفه علماء المناظرة والمنطق، وفيها نوع من تجاهل العارف، وكلها أساليب معروفة في المناظرة والبحث.

وفيها استفزاز للعقل ليفكر تفكيرا حرا طليقا من أغلال السعادة الآسرة.

لقد ترك إبراهيم عليه السلام أسلوب التقرير المباشر وانتقل إلى اعتماد أسلوب الحوار الذي استنبط به الحقيقة من اعتراف الخصم.

وكل هذا يفيد أن التبليغ يحتاج إلى اعتماد أساليب ذكية تتجاوز مستوى الخطاب المباشر والتقرير العادي.

ومن أمثلة تعدد أساليب التبليغ ما فصلت فيه سورة «يس» القول، إذ ذكرت أن الله بعث رسولين إلى قرية قيل إنها أنطاكية، فلما كذب القوم الرسولين عززهما إليه بثالث، ثم جاء من نفس القرية ومن أقصاها رجل ليس غريبا عن أهلها، فعزز دعوة الرسل الثلاثة، ومن أجل تفنيد ما كان عليه أهل القرية من الشرك، ساق ذلك مساق الاستغراب فقال:

﴿وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [سورة يس، الآية 21].

وفي هذا الأسلوب ما يشبه اتهام الذات، كأنه هو الذي لا يعبد الذي فطره، والحال أن ذلك ينطبق على المخاطبين الذين يتوجه إليهم بالخطاب، وهذا أسلوب جيد في استدعاء الآخر إلى رحاب الإيمان. والجديد في قصة هؤلاء الرسل أنها كشفت أن عناد أهل القرية لم يكف فيه ابتعاث رسول واحد، فلذلك تعددت الرسل، وهذا أسلوب آخر يقوم على تعديد المبلغين في التبليغ.

النموذج الثالث وهو أسلوب إبراهيم في مخاطبة الذي حاجَّه، وكان يدعي أنه إله الكون، وحين سأل هذا المدعي المتأله إبراهيم عن ربه الذي

بعثه قال:

﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [سورة البقرة، الآية 257].

فقال المتألِّه معانداً:

﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [سورة البقرة، الآية 257].

وادعى أنه إذا جاء برجلين فأعدم أحدهما وأبقى الآخر، فإنه يكون قد أحيا وأمات، مغالطاً وموهماً بأنه هو من أحيا الرجل الذي أبقاه على قيد الحياة، وهذا زعم باطل، لكن إبراهيم سلم الأمر جدلا و لم يدخل معه في مماحكة، وتحول إلى حجة أخرى فقال:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[سورة البقرة، الآية 257].

هذه ثلاثة نماذج مما اعتمده المبلغون، وما أكثر ما أورد علماء المناظرة من صور التبليغ.

وقد كتب ابن أبي عون كتابا أسماه «**الأجوبة المسكتة**» عرض فيها لصور من الحُجج الدامغة[1].

وألف عمر السكوني كتاب «**عيون المناظرات**» وفيه من هذا القبيل من المناظرات المفحِمة الكثير[2].

(1) **الأجوبة المسكتة** ابن أبي عون الكاتب، تحقيق عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(2) **عيون المناظرات** أبو علي عمر السكوني، تحقيق: سعد غرَاب، منشورات الجامعة التونسية، 1976.

الحقيقة الرابعة من حقائق التبليغ

• ضرورة تعدد المبلغين وتآزرهم من إشارات القرآن

من الحقائق المنبثَّة في كتاب الله أنه عرض لكثير من حالات التآزر التي كانت بين كثير من الأنبياء، وهم يؤدون رسالة التبليغ.

وقد أبرز القرآن بوضوح وجلاء أن الأمر قد يتطلب أن يتعاقب رسل متعددون في المكان الواحد، وفي الحيز الزمني الواحد، فتكون رسالة كل منهم رسالة تأييد ودعم ومؤازرة لمن بلغ الرسالة في ذلك الحيز المشترك.

وقد قدمت سورة «يس» صورة جلية عن تضافر المبلغين، إذ أرسل الله رسولين إلى أهل قرية فكذبوهما فعزز بثالث، فلم يستجيبوا لهم، وجاء من أقصى المدينة رجل من ذات القوم، والغالب أن يكون من وجهائهم، على قاعدة أن سكنى الأطراف هي سكنى الأشراف كما قيل، فدعم رسالة من كان قبله بأسلوب جديد، استعمل فيه البيان والفصاحة البالغة، فقال متسائلا:

﴿وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

[**سورة يس، الآية 21**].

والقصد من حشد الأنبياء في الحيز الواحد، إبراز أن التبليغ مهمة شاقة تحتاج إلى تعاون ومؤازرة[1].

(1) **تفسير التحرير والتنوير** محمد الطاهر ابن عاشور، 358/2، الدار التونسية.

وفي حياة الأنبياء نجد معهم وفي حواشي حياتهم أنبياء ورسلا آخرين يساندونهم ويؤيدونهم، وأبرز مثال ذكره القرآن هو نبوة إبراهيم عليه السلام الذي أيده الله تعالى بابنه إسماعيل الذي لم يتردد في المطاوعة لما قال له والده:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾

[سورة الصافات، الآية 102].

فكان جواب الولد:

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [سورة الصافات، الآية 102].

وفي الجواب رقة وتحنن يتبدى في مخاطبة الولد لوالده، يا أبت رغم أن الموقف صعب، وأن المطلوب تضحية جسيمة، وقد ساعد إسماعيل أباه إبراهيم مرة أخرى وهو يعلي قواعد البيت، وسجل القرآن ذلك الحدث فقال:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾

[سورة البقرة، الآية 126].

ومع إسماعيل فقد كان إسحاق هو أيضا ابنا بارا ورسولا مساندا لإبراهيم في دعوته وتبليغه.

ومع مؤازرة إسماعيل وإسحاق لإبراهيم، كان لوط وهو ابن أخي إبراهيم هو أيضا رسولا، وكان إبراهيم ملتحما به مشفقا عليه، مثلما يشفق الرجل المحب على ابن أخيه.

وقد تخوف إبراهيم من أن يشمل لوطا العذاب الذي جاءت الملائكة لتصبه على قومه، فقال إبراهيم:

﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾

[سورة العنكبوت، الآية 32].

ومن أسرة إبراهيم تشكلت حلقة مبلغة عن الله، كان كل فرد منها يؤدي الرسالة ويورثها مَن بعده، وقد كان يعقوب ابنا لإسحاق، وحفيدا لإبراهيم لم يفُته أن يجمع بنيه، ويعهد إليهم مجتمعين بالمحافظة على عقيدة التوحيد، وهذا ما وثقه القرآن بقوله:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهاً وَٰحِداً وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

[سورة البقرة، الآية 132].

وقد نفذ أبناء يعقوب وصية أبيهم بالمحافظة على عقيدة التوحيد، فكان يوسف ابن يعقوب رسولا من رسل بني إسرائيل، وكان إخوته

من الأسباط معه على دعوته، وبعد يعقوب ويوسف كان موسى رسولا إلى بني إسرائيل آزره الله بأخيه هارون.

وتوالى في بني إسرائيل رسل كثيرون يدعم بعضهم بعضا، وكان منهم داوود رسولا مع ابنه سليمان، ومنهم نبي الله إلياس واليسع وغيرهم.

وكان رسول الله داوود ومعه ابنه سليمان يتعاونان على التبليغ وعلى الحكم، وقد قضيا على التتابع في نازلة الغنم التي نفشت في زرع القوم ورعت فيه ليلا، فقضى سليمان بقضاء عقّب الله عليه بقوله:

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۖ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾

[سورة الأنبياء، الآية 78].

وكان موسى وأخوه هارون متعاونَين على الدعوة، وكان مع موسى رجال من بني إسرائيل، ومنهم اختار موسى سبعين رجلا ليحضروا معه الميقات الذي أخذه عن الله، فلما تجلَّى ربه للجبل واهتزَّ الجبل، خر موسى صَعِقاً، ثم خاطب ربه قائلا:

﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ ۖ﴾

[سورة الأعراف، الآية 155].

وبعد أن خاطب موسى فرعون، صار سحرة فرعون أنصارا لدعوته، وقالوا لفرعون:

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [سورة طه، الآية 72].

وقبل السحرة تهديد فرعون لما قال لهم:

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [سورة طه، الآية 70].

وكما كان لموسى أنصار من السحرة أول الأمر، فقد صار له بعد ذلك أنصار من بني إسرائيل يعينونه ويناصرونه، من أبرزهم أولئك السبعون الذين شهدوا المناجاة الإلهية.

وقد توسعت دائرة اليهود أصحابِ موسى في زمانه على الخلاف مما صار عليه أنصار عيسى الذين ظلوا في حدود المائة والعشرين رجلا، كما يذكر ذلك ابن حزم[1].

ومرد هذه القلة في أنصار عيسى دون أنصار موسى، إلى أن اليهود سرعان ما كونوا مملكتهم، وكان منها مملكة يهودا والسامرة، بل إن داوود وسليمان كانا ملكين من ملوك بني إسرائيل، يقول الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٦﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا

(1) **الفصل في الملل** لابن حزم، 16/2، تحقيق عبد الرحمن اعميرة، دار الجيل، بيروت 1985.

﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٧﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٨﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة ص، الآية 16-19].

لكن أصحاب عيسى ظلوا في قلة، فكان الحواريون اثني عشر رجلا، وظلوا أوفياء لرسالته إلا يهوذا الإسخريوطي الذي خان عيسى ووشى به إلى أعدائه[1].

أما بخصوص رسالة محمد ﷺ، فإن ميزتها الكبرى أن عددا كبيرا من الرجال والنساء والأطفال آمنوا بالرسول ﷺ فور سماعهم بدعوته فانضموا إليه، وتحملوا من المعاناة ما لا يتحمله إلا الصادقون، و لم يزل عددهم يتوسع حتى كانوا يشكلون الآلاف وهم يخوضون الغزوات، ويكتسح عددهم مناطق من شمال الجزيرة العربية وجنوبها وشرقها.

وقد مثل هؤلاء الصحابة بعددهم الكبير، وبإيمانهم الراسخ، وبصبرهم الكبير، وبأخلاقهم العالية، نموذجا بشريا متفردا.

يذكر القرافي في الفرق 202 عن بعض الأصوليين أنه قال: لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه في إثبات نبوته[2].

(1) **الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام** عبد العلي وافي، ص. 83، نهضة مصر 2002.
(2) **الفروق** للقرافي، الفرق 242، ج 120/4، عالم الكتب، بيروت.

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم عونا لرسول الله ﷺ على التبليغ، فنقلوا القرآن غضًّا كما تلقَّوه، ونقلوا السنة النبوية كما تلقوها من النبي ﷺ وعملوا بها في حياتهم، إذ كان النبي ﷺ يتعهدهم بالتعليم، فكان يجلس إليهم بعد صلاة الصبح عند أسطوانة التوبة عن يسار المحراب النبوي، ثم يعلمهم ما يقيمون به دينهم[1].

وميزة التبليغ على العهد النبوي أنه قد أسهم فيه جبريل مباشرة، كما ثبت ذلك من حديث جبريل الذي قال فيه عمر رضي الله عنه: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتُؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً، قال: صدقتَ، فعَجِبْنا له يَسأله ويُصدِّقه، قال: فأخبرْني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمنَ بالله وملائكته وكُتبه ورسُله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدَر خيره وشرِّه، قال: صدقتَ، فأخبرْني عن الإحسان؟ قال: أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لَم تكن تراه فإنَّه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها

(1) **أليس الصبح بقريب** محمد الطاهر بن عاشور، ص. 45، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط. 4، 2015.

بأعلمَ من السائل، قال: فأخبرني عن أمَاراتها؟ قال: أنْ تلدَ الأَمَةُ ربَّتَها، وأنْ تَرَى الحُفاةَ العُراة العَالَة رِعاءَ الشاءِ يَتَطاوَلون في البُنيان، ثمَّ انطلق فَلَبِثت مليًّا ثم قال لي: يا عمر أتدري مَن السائل؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: فإنَّه جبريلُ أتاكم يعلِّمُكم دينَكم»[1].

وفي ختام الحوار بين النبي ﷺ للصحابة أن السائل هو جبريل، وقال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم[2].

وبهذا يكون جبريل قد اشترك هو أيضا في أداء رسالة التبليغ بهذا الأسلوب الذي ينطلق من السؤال، ثم يتلقى الجواب، ثم يقر ما أجاب به النبي ﷺ. فيكون ذلك مثار عجب الصحابة كيف يسأل جبريل الرسول ثم يصدقه؟

وليست هذه المرة هي المرة الوحيدة التي كان لجبريل فيها حظ من تبليغ الشريعة مباشرة، فقد ثبت أنه حين فُرضت الصلاة نزل جبريل إلى الأرض فعلم النبي ﷺ الوضوء والصلاة، وصلى بالنبي ﷺ صلوات متعددة[3].

وفي حياة النبي ﷺ ظل جبريل يتنزل في شهر رمضان فيدارس النبي ﷺ القرآن.

(1) **صحيح مسلم** كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.
(2) **صحيح مسلم** كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.
(3) **سبل الهدى والرشاد** محمد بن يوسف الصالحي، 397/2.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أنه قال: كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ أجْوَد النَّاسِ، وكانَ أجوَد ما يَكونُ في رَمَضَانَ حينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ، فيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أجْوَدُ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ[1].

وفي حياة رسول الله ﷺ تحمل التبليغَ معه أصحاب احتفّوا به، منهم رجال ونساء وأطفال، وكلفهم عليهم السلام بالتبليغ فقال: «**بلغوا عني ولو آية**»[2].

وقد سجل القرآن مناصرة الصحابة للرسول ﷺ ومؤازرتهم له وتحملهم معه عبء التبليغ فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

[**سورة الأنفال، الآية 63**].

من خلال ما سبق استعراضه من تبليغ الرسل ومؤازرة أتباعهم لهم، فإنه يصح أن نستنتج أن الوحي قول ثقيل كما وصفه الله بقوله:

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [**سورة المزمل، الآية 4**].

وأنه رسالة شاقة يحتاج أداؤها الجيد إلى المؤازرة والمساعدة، لأن المطلوب هو أن تبلغ الرسالة أكبر عدد من الناس وتصل إلى أقصى

(1) **صحيح البخاري** كتاب بدء الوحي، الحديث 6.

(2) **صحيح البخاري** كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، الحديث 3461.

الآفاق، وذلك يتطلب أن يكون المشتغلون كثيرين، ليشتغلوا على مشروع واحد، يتعاورونه من زوايا مختلفة.

وفي عصرنا الراهن تشتد الحاجة إلى تآزر المبلِّغين، ويتعين أن تسهم في التبليغ مؤسسات التعليم والإعلام وتوظف فيه علوم شتى، وتخصصات شرعية واجتماعية ونفسية وفنية كثيرة.

وإذا أهمل المبلغ هذه الكفاءات و لم يستعن بها، وألغاها من اعتباره فإنه يعوّق مشروعه ويمنعه من الذيوع والانتشار والاستمرار، ومن ثم كان مشروع التبليغ في حاجة إلى أن يكون عملا جماعيا ومؤسسيا تشترك فيه أطراف متنوعة الخبرات والقدرات والمقاربات.

التبليغ
في عمل الرسول ﷺ

إن التبليغ هو محور ومرتكز وظائف النبي ﷺ وآكدها وأكثرها تعبيرا عن رسالته.

ولقد تحدث علماء المقاصد عن صفات الرسول ﷺ التي صدرت عنها تصرفاته.

وأفرد القرافي الفرق السادس والثلاثين من فروقه للحديث عن تصرفه ﷺ بالتبليغ، وذكر أن أعظم صفاته ومناصبه هو منصب التبليغ والفتوى، وذكر أن التبليغ هو أغلب صفات الرسول ﷺ وباقي صفاته الأخرى هي راجعة للتبليغ[1].

وتحدث محمد الطاهر ابن عاشور في الموضوع ذاته، وذكر أن منصب التبليغ هو أبلغ مناصب الرسول ﷺ، لأن وصف الرسالة غالب عليه[2].

(1) **أنوار البروق في أنواع الفروق** لشهاب الدين القرافي، قاعدة الفرق بين تصرفه بالتبليغ وتصرفه بالإمامة، 206/2، طباعة دار المعرفة.

(2) **مقاصد الشريعة الإسلامية** محمد الطاهر ابن عاشور، ص. 28، الدار التونسية للنشر.

ومؤدى هذا أن علاقة المسلمين بالرسول هي علاقة تقبل وامتثال لما بلّغه الرسول ﷺ عن ربه وعمل به مما صح نقله عنه.

وصفة التبليغ في الرسول ﷺ هي، من جهة ثانية مناط الوراثة النبوية.

وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء، فإن أهم ما ورثوه عنهم هو قيامهم بتبليغ رسالتهم وإيصالها، وإبلاغها إلى أقصى مدى يمكن أن تبلغه في الأمكنة والأزمنة.

ويظل القول والفعل النبويان أهم مصدرين لاستقاء المبلغين وتأَسِّيهم، وهذا يتطلب بالضرورة دقة العلم بأحوال رسول الله ﷺ وبمواقفه التبليغية.

وقد كفى العلماء السابقون المبلغين هذه الكلفة بما كتبوا في سيرة النبي ﷺ وشمائله إذ لا غنى عن الاطلاع على مواقف الرسول ﷺ التبليغية لمن يتصدى للتبليغ.

وإذا كان المدوَّن في السيرة شيئا كثيرا مما يحمل مادة علمية تفيد المبلغين، فإنه لا أقل من إرشاد المبلغ إلى أبرز تلك المصنفات وأوصلها وشيجة بعملية التبليغ.

مصنفات السيرة
وعاء مادة التبليغ

من بين مصنفات السيرة النبوية الحاوية لحقائق كثيرة عن تبليغ الرسول، يمكن الاطلاع على مغازي موسى بن عقبة المدني (ت 141) ومغازيه هي أقدم ما صنف في السيرة النبوية، وهي كتاب موثق كان الإمام مالك يشيد به ويقدمه، ويقول لمن معه عليك بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة فإنه أصح المغازي، وقد حقق د. محمد الطبراني سبعة أجزاء عن نسخة قديمة[1].

ومن مصادر السيرة النبوية سيرة محمد بن إسحاق (ت 151) وتهذيبها لعبد الملك بن هشام (ت 213) وشرحها الروض الأنف لعبد الرحمن السهيلي (ت 581) وكتاب عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لأبي الفتح اليعمري ابن سيد الناس (ت 734).

(1) **مغازي سيدنا محمد ﷺ لموسى بن عقبة**، طباعة البشير بن عطية بفاس، 2023.

ومن كتب السيرة الواسعة كتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي (ت 942).

ويذكر الصالحي أنه استقى كتابه من أكثر من ثلاث مائة كتاب[1]، وهذا العدد الكبير من كتب السيرة يعطي فكرة عن وفرة ما كتب في سيرة النبي ﷺ.

وقد تقصى الدكتور محمد يَسّف الكثير من مؤلفات المغاربة في السيرة، فجاء كتابه المعنون بـ «**المصنفات المغربية في السيرة النبوية ومصنفوها**» في سفرين حافلين بالإفادات عن مصادر السيرة النبوية المغربية، وحظي هذا العمل العلمي الجاد بتكريم دولي في مصر.

وإلى جانب كتب السيرة النبوية، فقد صنف العلماء كتبا في الشمائل المحمدية رصدوا فيها صفات النبي ﷺ الخِلقية والخُلقية، وهي تمثل مصدرا ثَرّاً لمعرفة أخلاق النبي ﷺ ولمعرفة تصرفاته في التبليغ.

ومن أهم كتب الشمائل النبوية، كتاب الشمائل المحمدية للإمام محمد بن عيسى الترمذي (ت 279)، وقد شرحه عبد الرؤوف المُناوي (ت 1003)، وشرحه علي بن سلطان القاري (ت 1014) بكتابه جمع الوسائل لشرح الشمائل، وشرحه محمد بن قاسم جسوس (ت 1182) في كتابه الفوائد الجليلة البهية على الشمائل المحمدية.

(1) **سبل الهدى والرشاد** للصالحي، 1/1، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1990.

ومن المصادر الجامعة لأخلاق النبي ﷺ كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى[1] للقاضي عياض (ت 544).

وقد كتب عنه وعن شروحه الكثيرة واختصاراته، الدكتور محمد يَسّف مبحثا مهما ضمن كتابه المصنفات المغربية في السيرة النبوية[2].

وخلاصة هذا أن سيرة النبي ﷺ العطرة، وشمائله العالية يجب أن تكون نبراسا للمبلغين، لأنها تبرز كيفيات مواقف الدعوة والتبليغ كما عاشها رسول الله ﷺ.

(1) **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** القاضي عياض اليحصبي، مع **مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا** لأحمد الشمني، دار الكتب العلمية، بيروت.

(2) **المصنفات المغربية في السيرة النبوية ومصنفوها** الدكتور محمد يسف، 165/2.

أداء التبليغ النبوي

لقد اعتمد رسول الله ﷺ في تقريب دعوته من الناس أساليب كثيرة، كان يراها مفيدة ومجدية في الوصول إلى المبتغى، وقد توسل عليه السلام في أداء التبليغ بوسائل يجب أن يعلمها المبلغون ويقيموا في ضوئها وهديها مشروعهم الدعوي، ويمكن الوقوف من أساليب الأداء النبوي على الجوانب التالية:

الجانب الأول من التبليغ النبوي

• التعليم وسيلة لترقية مدارك الناس ومدرج للتبليغ الجيد

من خطوات الرسول الحاسمة على طريق أداء التبليغ، أنه اشتغل على تعليم الناس وعلى ترقية مداركهم ورفعها إلى المستوى الذي أهلهم لاستيعاب حقائق الإسلام، وكان من دأب النبي ﷺ أن يحث أصحابه على التعلم، وعلى تعليم أهليهم وذويهم.

وقد أعلى النبي ﷺ من أهمية التعلم إلى أن جعله فريضة في النفس فقال: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[1] ثم جعله فرض كفاية يَأْثَم المجتمع كله بالتخلي عنها.

وتوعد النبي ﷺ الذين لا يعلّمون جيرانهم، والذين لا يتعلمون من جيرانهم، ثم أمهلهم سنة ليفعلوا ذلك، فصار التعليم مشروعا مجتمعيا[2].

روى الطبراني في «**الكبير**» أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**ما بالُ أقوامٍ لا يُفقِّهُون جيرانهُم، ولا يُعلّمونهُم، ولا يعظُونهُم، ولا يأمرُونهُم، ولا ينهونهم؟ وما بالُ أقوامٍ لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهُون؟ والله ليُعَلّمنّ قومٌ جيرانهم، ويُفقّهونهُم،**

(1) **سنن ابن ماجه** باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، 81/1، الحديث 224، دار إحياء الكتب العربية.

(2) **التراتيب الإدارية** عبد الحي الكتاني، 41/1، دار الكتاب العربي، بيروت.

ويعظُونهُم، ويأمُرونهم، وينهونهُم، ولَيتعلَّمَنّ قومٌ من جيرانهم، ويتفقهُون ويتّعظُون، أو لأعاجلنّهُم العُقُوبة[1].

واستجابة لهذا الأمر الملح ولتلك الدعوة المستعجَلة للتعلم، ابتكر الصحابة أساليب ذكية في التعلم السريع، وفي تحصيل العلم.

أخرج أبو نعيم عن أبي أمامة أن الرسول ﷺ أمر أصحابه عند العشاء فقال: احتشدوا للصلاة غدا، فإن لي إليكم حاجة، فقال رُفقة منهم دونك أولُ كلمة يتكلم بها رسول الله ﷺ وأنت التي تليها، وأنت التي تليها، لئلا يفوتكم من كلام رسول الله ﷺ [2].

ومن الطرق المبتكَرة في حفظ العلم ومدارسته، أن الصحابة كانوا إذا سمعوا الحديث راجعوه بينهم حتى يعرفوه.

قال أنس بن مالك: كنا قعودا مع نبي الله ﷺ فعسى أن يكون قال ستين رجلا، فيحدثنا الحديث ثم يدخل لحاجته فنراجعه بيننا، هذا ثم هذا فنقوم فكأنما زرع في قلوبنا[3].

ومن طرق الصحابة المبتكرة في طلب العلم، أنهم كانوا يتناوبون الحضور إلى مجلس رسول الله ﷺ، فإذا غاب أحدهم في بعض شأنه خلَفه صاحبه، فإذا لقيه أعاد عليه ما سمعه.

---

(1) **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** علي بن أبي بكر الهيثمي، كتاب العلم، باب في تعليم من لا يعلم، 164/1، دار الكتاب العربي، بيروت 1982.

(2) **التراتيب الإدارية** عبد الحي الكتاني، 236/2، دار الكتاب العربي، بيروت.

(3) **مجمع الزائد ومنبع الفوائد** للهيثمي، 161/1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 2، 1982.

وكان لعمر بن الخطاب شريك له في زرع، فكانا يتناوبان على حضور مجلس رسول الله ﷺ ثم يعلم الواحد منهما صاحبَه بما فاته بسبب غيابه.

عن عمر قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[1].

(1) **صحيح البخاري**، كتاب العلم، باب التناوب في العلم، الحديث رقم: 89.

الجانب الثاني من التبليغ النبوي

ارتباط تبليغ الرسول ﷺ بشخصيته الفذة

لقد كانت شخصية رسول الله ﷺ وأخلاقه الكريمة ومحامده الكثيرة أكبر عوامل اجتذاب الناس إليه وإقبالهم عليه وارتباطهم به وأخذهم عنه، وقد كانت هذه الأخلاق الكريمة نعمة من الله ولطفا منه بالأمة، إذ إنها استدعت الناس إلى رحاب الإسلام، يقول الله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 159].

والنفوس بطبيعتها تحب من كان دمث الأخلاق مُوَطَّأ الأكناف.

لقد عقد الإمام الترمذي في كتاب الشمائل بابا جامعا صور فيه كثيرا مما كان عليه ﷺ من أخلاق جميلة جعلته محببا لدى الناس.

يقول الترمذي: كان رسول الله ﷺ دائم البِشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صَخَّاب ولا فَحَّاش ولا عياب ولا مدَّاح يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه ولا يجيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: من المِراء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا، ولا يَعيبه ولا يعيّره ولا يطلب عورته[1].

(1) **الشمائل المحمدية** للحافظ الترمذي، الحديث 349، ص. 139، المكتبة العصرية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 2018.

وإذا كانت هذه بعض أخلاق رسول الله ﷺ العالية الكثيرة، فإني قد اقتصرت في هذا الحيز على إيراد بعض الأخلاق التي كان لها أكبر الأثر في اجتذاب الناس إلى رحاب الإسلام، وهي الأخلاق التي يتعين على المبلغين أن يكونوا على علم بها ويتمثلوها سلوكا اجتماعيا في حياتهم.

يذكر الرواة عن النبي ﷺ أنه كان يحسن الإصغاء إلى الغير، فقيل عنه إنه كان يعطي كل واحد من جلسائه وأصحابه حقه من الالتفات إليه والاهتمام به حتى يظُن كل واحد منهم أنه أحبُّ الناس إلى رسول الله ﷺ.

يروي الترمذي عن علي بن أبي طالب أنه تحدث عن رسول الله ﷺ فقال: كان يعطي كل جلسائه نصيبه[1].

وروى الترمذي عن عمرو بن العاص أنه قال: كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على شر القوم يتألفهم بذلك[2].

وكان رسول الله ﷺ لا يكاد يواجه أحدا بشيء يكرهه، ومن ذلك أن رجلا جاءه وكان به أثر صفرة، فلما قام. قال النبي ﷺ للقوم لو قلتم له يدع هذه الصفرة[3].

(1) **البداية والنهاية** للحافظ ابن كثير المشقي، 35/6، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.5، 1988.
(2) **الشمائل المحمدية** للترمذي، باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ، ص. 137.
(3) **الشمائل المحمدية** للترمذي، باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ، ص. 138.

وكان النبي ﷺ يتغافل عما لا يشتهي[1].

وكان عليه السلام لا يذم أحدا ولا يعيبه ولا يعيّره ولا يطلب عورته[2].

وهذه الكمالات الخلقية وغيرها هي التي قربت الناس إلى الرسول ﷺ وحببته إلى أناس كان فيهم حدة وجفوة، وكانوا يرفضون الإسلام بكل إصرار.

وإذا عزم المبلغون على أن يقوموا مقام الرسول في التبليغ، فإن معرفة هذه الأخلاق النبوية والتحلي بها، يجب أن تكون حالا دائمة في أحوالهم استعدادا للأداء الجيد.

وبسبب إهمال بعض المبلغين لهذا الجانب الخلقي، وأخذهم بأسلوب الشدة والجفوة والعنف اللفظي، فإنهم لم يصنعوا حولهم إلا خصوما يثونهم في المجتمع، وينشرون فيه الحقد والضغينة، ويفوّتون على الأمة فرصة الالتقاء والتعاون على خدمة الإسلام.

(1) **الشمائل المحمدية** للترمذي، باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ، ص. 139.

(2) **الشمائل المحمدية** للترمذي، باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ، ص. 140.

الجانب الثالث من التبليغ النبوي

• البذل والعطاء في شخص الرسول شاهد على صدق الرسالة

حينما يتحمل شخص قضية ليؤديها إلى الناس، فإنه قد يواجَه بشك وارتياب يُثاران حول مقصده من دعوته، وأغلب ما يُواجَه به أن يُقال عنه إنه إنما يريد بدعوته تلك تحقيق مكسب مادي.

لكن صاحب الدعوة يستطيع أن يدرأ هذا الارتياب ويدحضه حينما يقدم عن سلوكه شواهد على زهده فيما بأيدي الناس، وحينذاك فقط يثق الناس به ويطمئنون إلى صدقه في ما يدعو إليه.

وقد أمر القرآن الرسول ﷺ بأن ينفي عن نفسه تهمة الاستعطاء والتمول والاستكثار بالدعوة، فقال الله تعالى:

﴿قُل لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡراً إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾

[سورة الشورى، الآية 21].

بل إن النبي ﷺ قد ذهب إلى أبعد من هذا، فكان يعطي من ماله ليزيل الحواجز النفسية القائمة بينه وبين مناوئيه.

يقول أنس بن مالك في الحديث الذي رواه مسلم: ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه[1].

(1) **صحيح مسلم** كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا، الحديث رقم: 2312.

وقال أنس بن مالك: «جاء النبيَّ ﷺ رجل فأعطاه غنما بين جبلين. فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا. فإن محمدا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة»[1].

وقد يكون للعطاء أثر في التقريب بين الناس إذا كانوا يعتبرون العطاء والإهداء علامة على الاهتمام والتكريم، وإن لم يكونوا هم في أنفسهم فقراء.

ويشهد لهذا أن صفوان بن أمية لم يكن فقيرا، وقد قال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي[2].

وقد يذهب الظن ببعض الناس إلى اعتقاد أن العطاء من أجل التقريب فيه معنى شراء الضمائر، والأمر ليس كذلك، وهذا سلوك مشهود لدى بعض الثقافات التي تمنح المفكرين والعلماء والمخترعين هدايا دولية في صور جوائز تكريمية دولية، من أبرزها جائزة نوبل وجائزة كَونكور وغيرها، وهذه جوائز تتماهى مع طبيعة الثقافة الغربية، وتخدمها بوجه من الوجوه، وهذه الدول لم تمنح مطلقا جوائز من يعارض المشروع الحضاري الغربي.

(1) **صحيح مسلم** كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا، الحديث رقم: 2312.

(2) **نفسه**، الحديث رقم: 2313.

الجانب الرابع من التبليغ النبوي

• مسؤولية خطاب التبليغ عن إنجاح التبليغ أو تعويقه

لقد أوردت أن النبي ﷺ كان يجيد الإصغاء إلى الغير، وكان يهتم بمخاطبيه، لأن إهمال المخاطب والإشاحة عنه يلقي في نفسه معنى ازدرائه وتهوين شأنه.

وإضافة إلى هذا السلوك الإيجابي، فإن النبي ﷺ كان يعتني بلغة الخطاب الذي يتوجه به إلى الناس، فكان الخطاب النبوي فصيحا مبينا خاليا من المعاضلة والتعقيد، مشتملا على جوامع الكلم، وكان إلى جانب ذلك خطابا إنسانيا يراعي المشاعر والأحاسيس، ويجتنب استفزاز الغير وإثارة مشاعره.

ورد في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يخطب فجاءه أبو رفاعة.

يقول أبو رفاعة: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت يا رسول الله غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، قال: فأقبل علي رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إلي، فأتي بكرسي حسبت قوائمه حديدا، قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها[1].

(1) **صحيح مسلم بشرح النووي** كتاب الجمعة، باب التعليم في الخطبة، 165/6، دار الفكر، بيروت.

وحين كان النبي ﷺ يخاطب الناس، فإن خطابه كان ودودا حميميا. يتحدث عن أمته بقوله: أمتي، أمتي[1].

وسمى الرسول ﷺ عشيرته أهلا، فقال في أول خطبة توجه بها إليهم: إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذَبتُ الناس جميعا ما كذبتكم...[2].

وقد سمى القرآن الأقربين من الرسول ﷺ عشيرة فقال:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية 213].

وكل هذه التسميات تنضح بأحاسيس الحميمية والقرب والإشفاق.

وسمى النبي ﷺ من لم يدركه من أفراد أمته إخوانا، على غرار ما سمى القرآن أهل مدين إخوانا لنبيهم شعيب لما قال:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [سورة هود، الآية 83].

وعلى نحو ما سمى القرآن هوداً أخا لعاد، لما قال الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ﴾

[سورة الأحقاف، الآية 20].

(1) **صحيح مسلم** كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم، الحديث 202.

(2) **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد** محمد بن يوسف الصالحي، 432/2، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، 1986.

رغم ما كان عليه الأقوام من خلاف ومعارضة لشعيب وهود.

روى مسلم أن الرسول ﷺ دخل المقبرة فسلم على الأموات. فقال: وددت أنا رأينا إخوانا لنا، قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعدي. (1)

وأصْرح من هذا أن النبي ﷺ قد نادى بعض أصحابه بعبارة أُخَي بتصغير أخي قال عمر بن الخطاب: استأذنت النبي ﷺ في العمرة، فأذن وقال: لا تنسنا يا أُخيَّ من دعائك، فقال كلمةً ما يسرني أنّ لي بها الدنيا، في رواية أن عمر بن الخطاب استأذن رسول الله ﷺ في العمرة فقال: أي أخي أشرِكْنا في دعائك لا تنسنا(2).

ولا عجب في أن ينادي النبي ﷺ عمر بصفة الأخوة، لأن الأخوة رابطة جامعة بين كل المسلمين، بموجب قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات، الآية 10].

ولذلك فلا داعي للتشكيك في صحة الحديث، ما دام مرويا من قِبَلِ ثِقَاةٍ منهم الترمذي وأبو داوود.

(1) **صحيح مسلم** كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، الحديث 249.

(2) **سنن الترمذي** كتاب الدعوات، الحديث 3562.

والمستفاد من هذا هو أن الخطاب النبوي كان خطابا جميلا يتألف القلوب ويجمعها، وبذلك توسعت دائرة الإسلام في ظرف زمني قصير، وهذا المعنى هو ما أثبته القرآن الكريم في قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾

[سورة آل عمران، الآية 159].

القسم الثاني

تنزيل أمانة التبليغ

المقصد الأسمى والأفق الأعلى لأداء أمانة التبليغ

من غير ما حاجة إلى إثارة موضوع تعليل الفعل الإلهي، وهذا بحث عقدي تساجلت فيه بقوة مدارس العقيدة، وبسطت القول فيه كتب العقيدة الموسعة، فإن علماء المسلمين يميزون بين العلة والحكمة في الفعل الإلهي وفي التشريع، ولم يختلفوا في أن الأفعال الإلهية والتشريعات الإسلامية تنتظم حِكما تعود إلى تحقيق مصالح العباد، وإلى درء المفاسد عنهم.

لقد كان علماء المقاصد مهتمين بتقصي الحكم التي تتوخاها الشريعة، وقد أجملوها في درء المفاسد وتحقيق المصالح.

وقد توسع الشاطبي في المسألة الثانية عشرة من كتاب المقاصد من الموافقات في بحث الموضوع فقال: لما ثبت أن الأحكام شرعت لمصالح العباد، كانت الأعمال معتبرة بذلك، لأنه مقصود الشارع فيها، فإذا

كان الأمر في ظاهره وباطنه في أصل المشروعية فلا إشكال، وإن كان الظاهر موافقا والمصلحة مخالفة فالفعل غير مشروع، لأن الأعمال الشرعية ليست مقصودة لأنفسها، وإنما قصد بها أمور أخر هي معانيها. وهي المصالح التي شرعت لها، والذي عمل من ذلك على غير هذا الوضع فليس على وضع المشروعات[1].

(1) **الموافقات** لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن، المجلد 120/3، دار ابن عفان.

غايات التبليغ
من حياة الإنسان

إن التسليم باعتناء الشريعة بتحقيق المصلحة، هو ما يجعل التماس المصلحة فيما شرعه الله فريضة لازمة وحتمية تشريعية لا مناصَّ من الوقوف عندها.

ومن هذا المنطلق يتعين طرح سؤال كبير عن نوعية المصالح التي تستهدف أمانة التبليغ وتحقيقها.

ويمكن القول وبكل اطمئنان، إن غاية التبليغ هي تحقيق سعادة الإنسان في بعديها العاجل والآجل.

وقد ضمن الله تحقيق السعادة العاجلة والآجلة في الاستجابة لشريعته في قوله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 97].

وهذا ما يفسر حديث بعض العلماء في بعض كتبهم عن السعادتين وعن الحياة الطيبة عموما.

وغاية تحقق السعادة في حياة الفرد أن يحيا حياة كريمة طيبة مطمئنة، وهذه الحياة التي يريدها الإسلام للفرد ليست مطلق حياة، وإنما هي توعية خاصة من الحياة يجلبها تطبيق أحكام الإسلام في حياة الناس، وإلا فإن القرآن قد عاب على أقوام أنهم رضوا بمطلق الحياة التي لا تحقق سعادة الإنسان ولا تحفظ كرامته، فقال الله تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾

[سورة البقرة، الآية 95].

بتنكير كلمة حياة، أي أي نوع من الحياة، ولو كانت حياة سخيفة تنغصها التوترات والأحزان، ولا تتساوق مع مبدأ التكريم الإنساني الذي الله عنه:

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [سورة الإسراء، الآية 70].

هدف التبليغ الأسمى

إن غاية التبليغ الذي يسعد به الإنسان، ولا يتشوف بعده إلى شيء آخر غيره، هو تبليغ كل ما يصير به الإنسان سعيدا سعادة تامة عميقة في حقيقتها، واسعة في مداها، وفي أزمنة وجودها وبقائها مستمتعا بكرامته.

وميزة وجود الإيمان في حياة الإنسان أنه يمنحها بعدا أوسع وأرحب يمتد إلى ما بعد انقضاء الحياة الفانية، وبذلك تصير السعادة سعادة مثناة مزدوجة، وتكون أخراها سعادة أبدية سرمدية، ولا تكون شقاء أبديا، وقد اعتنى القرآن بهذه الحقيقة فقال:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَالاَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [سورة هود، الآية 108].

وعلى النقيض من ذلك قال عمن شقي فيها:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾

[سورة هود، الآية 106-107].

وبهذا تكون سعادة من لا يومن باليوم الآخر محدودة مبتسَرة، لأنها تنتهي بانتهاء الحياة الفانية، وبانهدام الجسد بالموت.

وقد عاب أبو العلاء المعري على الذين لا يومنون إلا بالبعد الدنيوي من حياة الإنسان، ويعتقدون لحُوق الفناء بعد الموت فقال:

خُلِقَ النَّاسُ للبقاءِ فضلَّتْ أُمَّةٌ يحسَبونهم للنفَادِ

إنما يُنقلون من دار أعمالٍ إلى دار شِقوة أو رَشادِ

تحقيق السعادة
باعتبارها هدفا للتبليغ، ومطلبا لكل إنسان

يقول سيد علي الطوبجي السيوطي في مقدمة تحقيقه لكتاب السعادة لمسكويه: «لقد أورد العلماء أن السعادة هي الضالة المنشودة للنوع الإنساني، وهو جدير بأن يتطلبها، حتى لا تكون حياته ضائعة بين هم وغم ووهم وخيالات وأمراض وأوجاع وبسط وقبض وعسر ويسر وفقر وغنى وعز وذل»[1].

ويرى العلماء أن طلب الإنسان للسعادة هو طلب جار على مقتضى الفطرة الإنسانية.

يقول الطوبجي: «إنما كانت السعادة هي الضالة المنشودة للنوع الإنساني، وهو جدير بأن يتطلبها حتى لا تكون حياته ضائعة.

لذا وجب على من له مُسكة من العقل والتمييز أن يسعى إلى ما خلق لأجله، وبأي شيء يصير خليفة في أرض المكون الحكيم»[2].

(1) **مقدمة سيد علي الطوبجي لكتاب السعادة** لابن مسكويه، ص. 3، المطبعة العربية بمصر، 1928.
(2) **نفسه.**

وما قاله مسكويه عن أهمية السعادة في حياة الإنسان، هو شيء مما هداه إليه فكره الثاقب، لكن الاهتمام بالسعادة ظل رغم ذلك في الهامش من اهتمامات الناس، و لم تشتد الحاجة إلى العناية بالسعادة إلا بعد أن مرت البشرية بأزمنة من الحروب الظالمة ومن الاستعمار، ومن المجاعات العامة، ومن الأزمات والكوارث الإنسانية. وحينذاك توجه الفعل الإنساني إلى الاهتمام بما تعيشه الشعوب من منسوبات السعادة.

واعتمدت الأمم المتحدة تصنيفات دولية للسعادة وصارت تصدر تقارير سنوية عن مستوى سعادة الشعوب عبر العالم.

وذهبت دول إلى إحداث وزارات تعنى بدراسة ما يعيشه المواطنون من سعادة، ورصدت لذلك ميزانيات لتأجير من يؤنسون الناس من الشيوخ المنقطعين في بيوتهم، ومن الذين لا يجدون من يؤنسهم ويذهب وحشة نفوسهم.

وقد اتسع مفهوم السعادة وأدرجت فيه عناصر عديدة منها:

الاستمتاع بفرص العمل والسكن والحصول على المعرفة والعلاج ونوعية التغذية وممارسة الرياضات والاستفادة من العطل وغير ذلك من المعايير المعتمدة أمميا.

وفي ضوء تحقق تلك المعايير أصبحت الدول تصنف وترتب في سلم الاستفادة من السعادة.

أهمية السعادة في حياة الإنسان من خلال إفادات القرآن الكريم

لقد طرق القرآن الكريم موضوع السعادة في آيات عديدة وبمناسبات شتى، ساق في كل منها دفقة مما يجب أن يتلقاه ذهن الإنسان عن حقيقة السعادة وأهميتها في حياته.

وأعظم ما أفاد القرآن الكريم في موضوع السعادة، أن تحقيق السعادة، هو المراد من تنزيل القرآن الكريم، وأن الإله لا يريد لعباده إن هم استضاءوا بهدي القرآن إلا أن يكونوا سعداء في الحياتين. يقول الله تعالى:

﴿طَٰهٰ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾

[سورة طه، الآية 1].

وبإعمال مفهوم المخالفة في مفهوم السعادة، فإن نفي أن يكون الشقاء هو سبب تنزيل القرآن معناه أن سبب التنزيل هو تحقيق السعادة، لأن العلاقة بين الشقاء والسعادة هي علاقة تناقض لا تضادّ، والضدَّان لا يجتمعان معا كما أنها لا يرتفعان معا، كما هو معروف في علم المنطق. فإن انعدم الشقاء كان مقابله هو أن تتحقق السعادة للإنسان.

لذلك فإن شأن الوحي الإلهي أنه يطرد الشقاء من حياة الإنسان ليُحِل السعادة مكانه، وهذا أمر واضح جلي نلاحظه من تتبع أحوال الذين أنكروا الخالق وجحدوا الوحي، فوقعوا في الكآبة وفي شقاوة الحيرة والتردد، وآل أمرهم إلى الإيمان بالعدم وبتعدد صور الموت في كثير من جوانب الحياة، فتحدثوا عن موت الإله، وعن نهاية التاريخ والفلسفة، وعن موت المؤلف، وغير ذلك من أنواع الموت التي انجرت أساساً عن القول بموت الإله كما قال به نيتشه.

يقول الله تعالى في توصيف أزمة التردد والضياع التي يقع فيها منكرو الوحي:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 111].

وتحدث القرآن عن حالة التمزق التي يرتكس فيها المنكر لوجود الله والمشرك به فقال:

﴿وَمَنْ يُّشْرِكْ بِاللّٰهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخَطَّفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

[سورة الحج، الآية 29].

وقد نشرت الإحصاءات الكثيرة عن نِسب الانتحار العالية التي تعرفها البلاد الغنية التي يفقد الناس فيها الإيمان وما يضفيه على النفس من بهجة الأمل الذي يجلبه الإيمان بالله والاعتماد على مساندته وكلاءته ولطفه بعباده ورجاؤه في الله.

وبهذا يصح أن يقال إن الإيمان هو أصل السعادة ومنبعها الذي لا ينضب، وأن إنكار الخالق هو مدعاة اليأس والكآبة والقنوط.

تعريف السعادة
في الفكر الإنساني

لقد كانت كتب الأخلاق والمعاجم الفلسفية، حريصة على دراسة مفهوم كلمة السعادة.

وتبعا لأهمية السعادة في حياة الناس، فقد تأملها مفكرون وفلاسفة منذ زمن بعيد.

وكان سقراط (399 ق م) يربط الأخلاق والسعادة بالمعرفة، ويربط الرذيلة والشقاء بالجهل[1].

وعرّف المعجم الفلسفي لجميل صليبا السعادة بأنها ضد الشقاوة، وهي الرضا التام بما تناله النفس من الخير[2].

وعرفت موسوعة لالاند الفلسفية كلمة السعادة بأنها حالة رضى تام، تستأثر بمجامع الوعي.

(1) **محاضرات فلسفة الأخلاق** د. إمام عبد الفتاح إمام، ص. 35، دار الثقافة، القاهرة 1974.

(2) **المعجم الفلسفي** جميل صليبا، 556/1، دار الكتاب العربي، بيروت، ط.1، 1973.

وعرفتها كذلك بأنها إرضاء كل الميول وإشباعُها سواء بالتوسع أي بالكثرة أو بالتكثف أي بالدرجة أو بالأمد أي الديمومة[1].

وتعرضت موسوعة المصطلح في التاريخ العربي الديني والعلمي والأدبي لتعريف كلمة السعادة، فذكرت أن كلمة السعادة ليس لها دقة المصطلح من حيث مضمونها، وأنها تدل على حال نفسية أو عقلية تختلف بحسب الأفراد الذين ينشدونها أو يتحدثون عنها[2].

والفرق بين السعادة واللذة، أن السعادة خاصة بالإنسان، وأن رضا النفس بها تام، على حين أن اللذة حالة مشتركة بين الإنسان والحيوان[3].

(1) **موسوعة لالاند الفلسفية**، 139/1، مطبوعات عويدات للنشر، بيروت 2012.

(2) **موسوعة المصطلح في التراث العربي الديني والعلمي والأدبي**، د. محمد الكتاني، 1257/2، دار الثقافة، الدار البيضاء

(3) **المعجم الفلسفي**، جميل صليبا، 656/1، دار الكتاب العربي، بيروت، ط.1، 1973.

تعاريف السعادة

• الدلالة اللغوية والمفهوم الاصطلاحي

لقد تناولت كثير من كتب اللغة والاصطلاح والأخلاق كلمة السعادة بالتعريف والبيان، وكانت تعاريفها متفاوتة دقة وتسامحا.

فعرف الكفوي، في كتاب «**الكليات**»، السعادةَ: بأنها معاونة الأمور الأخروية للإنسان على نيل الخير، ويضادُّ الشقاوة[1].

واعتمد السمين الحلبي هذا التعريف وساقه بنصه[2].

أغفلت معظم كتب التعريفات كلمة السعادة فلم تتعرض لها. على نحو ما نجد في كتاب «**التعريفات**» للجرجاني، وفي كتاب «**التوقيف على مهمات التعاريف**» لعبد الرؤوف المناوي.

---

(1) **الكليات** لأبي البقاء الكفوي، ص. 506، نسخة عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، بيروت 1993.

(2) **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، السمين الحلبي 227/2.

• تعاريف السعادة في التراث الإسلامي

من أبرز من عرّف السعادة في التراث الإسلامي أحمد مسكويه (1030) الذي أفرد موضوع السعادة بمؤلف خاص أسماه: «**السعادة**». يقول مسكويه عن السعادة: «إنها هي الغاية التي يرنو إليها الإنسان ويطمئن لها، وهي غايات متدرجة، وهي مختلفة بين الناس بحسب هممهم ومراتبهم، ولكل إنسان غاية يقصدها بسعيه، ويسميها سعادة له، كمن يسعى للذة أو الثروة أو الصحة أو للغلبة أو للعلم، وإنما أوتوا هذا الاختلاف من قِبل أنهم لم يلحظوا الكمال البعيد في الرحلة إلى سعادة قصوى، ولو عرفوها ونصبوها غرضا لسعوا بالباقيات نحوها»[1].

وعرّف ابن خلدون السعادة في المقدمة الثالثة من كتابه «**شفاء السائل لتهذيب المسائل**» في الفصل الثاني الذي أفرده للحديث عما سمت إليه همم القوم[2].

عرف ابن خلدون السعادة بأنها حصول النعيم واللذة باستيفاء كل غريزة ما يشتاق إليه مقتضى طبعها وذلك هو كمالها[3].

(1) **السعادة** لابن مسكويه، نسخة سيد علي الطبجي السيوطي، ص. 35، ط.2، المطبعة العربية بمصر، 1928.

(2) **شفاء السائل بتهذيب المسائل** لعبد الرحمن بن خلدون، تحقيق أبي يعرب المرزوقي، ص. 189، الدار العربية للكتاب، 1991.

(3) **شفاء السائل بتهذيب المسائل** لعبد الرحمن بن خلدون، تحقيق أبي يعرب المرزوقي، ص. 189، الدار العربية للكتاب، 1991 و **شفاء السائل وتهذيب المسائل** لابن خلدون، تحقيق د. محمد مطيع الحافظ، ص. 65، دار الفكر، دمشق 1996.

• السعادة في مدارس الأخلاق

لقد كان مبحث السعادة في علم الأخلاق مبحثا جوهريا حظي باهتمام علماء الأخلاق، وتحدثوا عنه عقب دراستهم لمفهومي الخير والشر، فاعتبروا السعادة نتيجة لما هو خير، واعتبروا الشقاء نتيجة لفعل ما هو شر، وتبعا لهذا اعتبرت السعادة مؤشرا للتمييز بين ما هو خير وما هو شر.

وقد اقترن مفهوم السعادة لدى بعض الفلاسفة بمفهوم اللذة، وكان السلوك الذي يحقق اللذة مطلوبا، وتتمايز أنواع اللذة بأمرين: هما الشدة، والمدة التي يستغرقها الإحساس باللذة، ومثل ذلك الألم، فإنه يقاس بقوته وعمقه وبزمن الإحساس به، وقيل إذا استوت اللذتان في الشدة فضلت أطولهما مدة.

واللذة المتحققة تختلف بين أن تكون لذة وسعادة شخصية، أو تكون لذة وسعادة عامة[1].

يذكر مؤرخو الأفكار أن بعض من قالوا بالسعادة الشخصية، وعلى رأسهم أبيقور اليوناني (341 ق.م – 270 ق.م) لم يحصروا السعادة في

(1) كتاب «**الأخلاق**» لأحمد أمين، مذهب السعادة، ص. 96، لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر، ط. 8، 1958.

اللذائذ البدنية، وإنما أضافوا إليها اللذائذ العقلية والروحية، وهي أطول في الزمن وأبقى في الإحساس، وقد تتمثل اللذة العقلية في لذة استذكار للحظات الجميلة في حياة الإنسان وهي لذة عقلية وهي أبقى وأعمق.

وقد نبه أحمد أمين في كتاب «**الأخلاق**» على خطأ القول بأن أبيقور كان داعيا إلى الانهماك في اللذات الجسمية والجري وراء الشهوات[1].

يذكر وِلْ ديورانت في كتابه «**قصة الحضارة**» عن أبيقور قوله: «إذا قلنا إذن إن اللذة هي أعظم خير، فلسنا نقصد بذلك لذات الرجل الفاجر، أو اللذات التي تقع في مجال المتعة الجنسية، ولكننا نقصد تحرر الجسم من الألم، والروح من الانزعاج...»[2].

وقد كان أبيقور يرى أن خير سعادة تطلب، هي لذة طمأنينة العقل، وكانت له أقوال محفوظة في تعريف اللذة بمفهومها العقلي والنفسي، ومنها قوله: لا تخف من الموت، لا تخف من الألم، عش حياتك ببساطة، وابتعد عن الشهرة والطموح السياسي، وكن مخلصا في حياتك وعملك، وهذه ولا شك أسس سعادة عقلية وأخلاقية ليس لها صلة بلذة الجسد.

(1) **كتاب الأخلاق** أحمد أمين، ص. 100.

(2) **قصة الحضارة** ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، 173/7، الباب الثالث والعشرون، الكتاب الخامس، طباعة مهرجان القراءة للجميع، القاهرة 2001.

ويذكر الشهرستاني عن أبيقور أنه كان يربط السعادة والشقاء بالأنفس وحركاتها، فإن فعلت خيرا وحسنا فيرِد عليها سرور وفرح، وإن فعلت شرا وقبيحا فإنه يرد عليها حزن وترح[1].

وقد لخص د. عبد الرحمن بدوي في كتابه «**الأخلاق النظرية**» مذهب أبيقور في اللذة، فذكر أن الرغبات تنقسم إلى ثلاثة أنواع هي:

- رغبات طبيعية وضرورية؛
- رغبات طبيعية لكنها غير ضرورية؛
- رغبات ليست طبيعية ولا ضرورية.

فالرغبات أو الشهوات الطبيعية الضرورية موضوعها إشباع أبسط الحاجات الأولية في الإنسان بأقل قدر، فيكتفي بكسرة خبز لرد غائلة الجوع، وبكأس من الماء لدفع غائلة العطش.

والشهوات أو الرغبات الطبيعية غير الضرورية موضوعها تنويع أنواع الإشباع والاستمتاع بالتفنن في المأكول والملبوس والمشروب، ولا بأس على الحكيم في الأخذ بأنواع من الاستمتاع في بعض الأحيان، على أن يكون ذلك باعتدال وفي ظروف متباعدة.

(1) **الملل والنحل** للشهرستاني، الفصل الثاني، حكماء الأصول، رأي أبيقور، ص. 417، تحقيق: عادل إبراهيم، مكتبة فياض، المنصورة 2013.

والشهوات التي ليست طبيعية ولا ضرورية لا تصدر عن الطبيعة، وإنما الدافع إليها هو الغرور والتفاخر الكاذب بين الناس، مثل الحرص على المناصب الرفيعة وألوان التكريم المظهري، وينبغي للحكيم أن ينأى بنفسه عن هذه الشهوات.

وقد دعا أبيقور إلى تحصيل طمأنينة النفس وذلك بتبديد دواعي الخوف عند الإنسان، ومنها الخوف من الموت[1].

(1) **الأخلاق النظرية** د. عبد الرحمن بدوي، ص. 242، وكالة المطبوعات، الكويت 1975.

حقيقة السعادة
في مصادر التراث الإسلامي

يمكن استخلاص حقيقة السعادة بعد تأمل جملة التعاريف التي ساقها العلماء المسلمون.

• فلسفة السعادة كما يراها مسكويه

يذكر مسكويه أن كل إنسان قد نصب لنفسه غاية يقصدها بسعيه، ويسميها سعادة له، فيسعى للذة أو للثروة أو للصحة أو للغلبة أو للعلم، وإنما أوتوا هذا الاختلاف من قِبل أنهم لم يلحظوا الكمال البعيد، أعني السعادة القصوى[1].

ويُردف مسكويه قائلا: «إن بعض ما يراه الناس سعادة ليس إلا سعادة مظنونة، أو إنها سعادة بالتعبير المجازي»[2].

(1) **السعادة** مسكويه، ص. 35، نسخة أبي يعرب.

(2) **السعادة** مسكويه، ص. 37، المكتبة العربية بمصر، ط.2، 1928.

فالسعادة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان هي سعادة لا تراعي كرامة الإنسان وخصوصيته، لأن الحيوانات قد تكون أقوى وأقدر على الاستمتاع بها تبعا لقوة أجسامها ولضخامة أبدانها، كما هو الشأن في أكلها وشربها وسِفادها.

أما السعادة المحض التي تخص الإنسان وينفرد بها وتتساوق مع كرامته فهي سعادة يشترك فيها الناس، لكنهم يختلفون في مقادير إصابتها والاستمتاع بها، بحسب مداركهم العلمية، وبحسب خبراتهم وتجاربهم.

وسعادة الإنسان الموسر هي سعادة مرتبطة بمقدار إنفاقه للمال على الوجه الصحيح، وسعادة الفقير تظهر في صبره وقدرته على تحمله.

وتختلف سعادة الطبيب الماهر الذي ينقذ الأبدان من الهلاك عن سعادة الكاتب الحاذق، وسعادة العالم بفنون من العلم عن سعادة العالم بعلم واحد.

وسمة السعادة المادية أنها متى أصاب الإنسان منها كفايته مل منها وانصرف عنها، فسعادة الشبع موقتة سرعان ما يلغيها الجوع المستجد، وسعادة صاحب الترفه إذا مرض رأى أن الصحة هي السعادة الحقيقة، وصاحب الصحة إذا أصابه ذل أدرك أن الكرامة هي السعادة دون غيرها.

والكرامة سعادة ثابتة مقيمة لا يمل الإنسان منها[1].

(1) **السعادة** مسكويه، ص. 40.

السعادة القصوى
في فكر ابن خلدون وابن سينا

تفيد القراءة الجيدة المتقصية لحياة ابن خلدون (ت 808) ولتنقلاته المتواصلة في البلاد الإفريقية، وفي الأندلس واشتغاله في خدمة الرؤساء، أن الرجل كان ولا شك شغوفا بالسعادة متعلقا بتحقيقها، حسبما يتبين من خلال قراءة سيرة حياته التي دونها كتاب رحلة ابن خلدون شرقا وغربا[1].

وبسبب تعلق ابن خلدون القوي بقيمة السعادة، فقد عبر عن رأيه فيها لما كتب عنها مبحثا رصينا في كتابه شفاء السائل لتهذيب المسائل، حسبما عنونه محققه د. أبو يعرب المرزوقي.

أو هو كتاب شفاء السائل وتهذيب المسائل، حسبما أثبته محققه د. محمد مطيع الحافظ.

(1) **رحلة ابن خلدون شرقا وغربا** لابن خلدون، ص. 64، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت 2004.

يقول ابن خلدون معرفا للسعادة: «اعلم أن معنى السعادة هو حصول النعيم واللذة لاستيفاء كل غريزة ما يشتاق إليه مقتضى طبعها وذلك هو كمالها»[1].

ويرى ابن خلدون أن السعادة الفضلى التي يختص بها الإنسان وينفرد بها عن الحيوان هي سعادة تحصيل العلم، لكن العلوم متفاوتة في أهميتها، فالعلم بالنحو والفقه والشعر ليس كالعلم بالله وصفاته[2].

يقول ابن خلدون: لقد تبين أن العلم لذيذ، ولذة جمال مطالعةِ حضرة الربوبية هي التي عنى النبي ﷺ بقوله (حكاية عن ربه): أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[3].

وخلاصة رأي ابن خلدون في السعادة أنها تنتهي إلى السعادة الفضلى التي تبتدئ بتحصيل المعرفة، وترتقي إلى المعرفة بالله وصفاته.

وما قال به ابن خلدون لا يبتعد كثيرا عما قال به سقراط الذي كان يُجمل السعادة والأخلاق في حصول المعرفة[4].

---

(1) **شفاء السائل** بتحقيق محمد مطيع الحافظ، ص. 65، دار الفكر، دمشق 1996.

(2) **نفسه**، ص. 66.

(3) **البخاري** كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾، رقم: 4779.

(4) **مقاربات في المسألة الأخلاقية** مصطفى بن حمزة، ص. 30، دار الأمان، الرباط 2019.

وما تحدث به ابن خلدون عن السعادة الفضلى، هو ما درسه بالتحديد أبو علي ابن سينا (ت 428) في كتاب «الإشارات والتنبيهات»، لما عقد فيه فصلا في التمييز بين البهجة والسعادة.

يقول ابن سينا: «إنه قد سبق إلى الأوهام العامية أن اللذات القوية المستعلية هي الحسية، وأن ما عداها ضعيفة وكلها خيالات غير حقيقية».

وردا على هذا الوهم يقول ابن سينا: إن اللذات غير الحسية هي الأقوى، ويستشهد على ذلك بأن المتمكن من غلبة ولو في أمر خَسيس كالشطرنج والنرد، قد يعرض لهما مطعوم أو منكوح فيرفضه لما يعتاضه من لذة الغلبة الوهمية.

وقد يعرض مطعوم ومنكوح لطالب العفة والرياسة مع صحة جسمه في صحبة حَشَمه فينفُض اليدَ منها مراعيا للحشمة، فتكون مراعاة الحشمة آثر وألذ لا محالة هناك من المنكوح ومن المطعوم.

وكذلك فإن كبير النفس يستصغر الجوع والعطش عند المحافظة على ماء الوجه، فيستحقر هول الموت ومفاجأة العطب عند مناجزة البارزين.

ويذهب ابن سينا في التمثيل لقوة السعادة غير المادية بما يحصل في عالم الحيوان، فإن من الكلاب الصِّيد ما يقتنص على الجوع، ثم يمسك على صاحبه وربما حمله إليه.

ثم يقول ابن سينا: فإذا كانت اللذات الباطنة أعظم من الظاهرة وإن لم تكن عقلية، فما ظنك بالعقلية[1].

وعلق نصير الدين الطوسي (672) شارح «**الإشارات والتنبيهات**» بأن من الحيوانات ما يشارك الإنسان في الاستفادة من اللذة غير الظاهرة.

(1) **الإشارات والتنبيهات** لأبي علي ابن سينا، مع شرح نصير الدين الطوسي، القسم الرابع، ص. 9، تحقيق سليمان دنيا، ط.3، دار المعارف، مصر.

من السعادة إلى الإسعاد

لما تبين مفهوم السعادة في كتب الاصطلاح، وكونها هدفا ساميا ومطمحا عاليا يرنو المبلغون إلى تحقيقه في الحياة ويحققه الإسلام في حياة الناس العاجلة ثم الآجلة، فإن هذا يقود إلى طرح تساؤل عملي وجيه عن كيفية الانتقال من السعادة إلى الإسعاد تصورا وتطبيقا.

وإذا قابلنا بين معنيي السعادة والإسعاد، فإن الصيغتين الصرفيتين للكلمتين تسعفان بإدراك الفرق بينهما.

فالعلاقة بين فعل سعِد الثلاثي، وأسعد الرباعي هي من حيث الصيغة الصرفية، علاقة ما بين الفعل اللازم والفعل المتعدي.

وهي علاقة ما بين الفعل والانفعال ضمن المقولات العشر، كما تحدث بها أرسطو وشرحها المناطقة.

وبالجملة فإن السعادة هي شعور باطني ذاتي يجده الإنسان، ويعرفه معرفة جَوَّانية كما يعبر به الدكتور عثمان أمين صاحب فلسفة الجوانية، أو هو معرفة حضورية لا حصولية بتعبير المناطقة.

أما الإسعاد فهو الامتداد بالسعادة ونقلها إلى الغير، وهي فعل يفيض به وجود الإنسان السعيد على من هم حوله، أو من يتوجه إليهم بالإسعاد، والإسعاد هو ما سماه الحديث النبوي الشريف بإدخال السرور في قلب المؤمن، وخصوصا في قول النبي ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء»[1].

وإسعاد الآخرين في الشريعة الإسلامية ليس عملا موكولا إلى وجدان الفرد الذي يسعد غيره، وإنما هو منظومة تشريعية متكاملة، من شأنها أن تغدق السعادة على الأفراد وعلى المجتمع.

ومع هذا فإن ثقافة الإسعاد يجب أن تكون مركوزة في الضمير الفردي، وراسخة في السلوك الاجتماعي للأفراد، لأن الإسعاد لا يتساوق مع الأثرة والأنانية والتقوقع حول الذات.

ولذلك فإن الإسعاد يتطلب وجود بيئة حاضنة وتربة صالحة تنبت ثقافة البذل والعطاء، وتنعشها إن هي خبت أو فترت.

ومن الحقائق المجتمعية السوسيولوجية المتعلقة بالإسعاد، أن البيئة المشرقية هي بيئة حاضنة لثقافة العطاء والإسعاد، فلذلك قد يجد الفرد فيها سعادة كبرى، وينتشي انتشاء عظيما حينما يقدم لغيره ما يخفف من محنته، أو ما يقيم به أوَدَه.

(1) **المعجم الكبير** للطبراني، 261/8، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط.2، 1985، شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، العراق.

ولهذا حفلت كتب تاريخ الأدب العربي بذكر أخبار الكرام والأجواد، فكان خزيمة بن بشير يعرف بجابر عثرات الكرام.

وكان حاتم الطائي وهو نصراني، والسموأل بن عاديا وهو يهودي علامات بارزة في تاريخ الكرم والإسعاد عند العرب.

وكان إسعاد الآخرين قيمة اجتماعية وثقافة عامة وسلوكا محبذا في المجتمع، وقد تجاوز الإسعاد الحدود العادية حينما امتد إلى إسعاد الحيوان، وإلى إيثاره بالأكل والشرب مع الرضا والقناعة بالطوى والجوع.

وكان الشنفرى أحد أولئك الشعراء الصعاليك الذين ربطوا علاقات حميمية مع الحيوانات المتأبدة، فأَنست بهم وسالمتهم، وكان الشنفرى يخرج مع الوحوش للصيد والمطاردة إذا عضه الجوع، ولكنه كان إذا ظفر بطريدة لا تُشبع الحيوانات معه، فإنه كان ينتحي ناحية ويتفضل عليها بالطعام، ويكتفي هو بشرب الماء، والماء بارد في زمن الشتاء.

يقول الشنفرى في التمجد بهذه العلاقة التي كانت له مع الحيوانات المتأبدة التي صيرها أهلا له:

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ هُمُ الأهلُ لا مستودعُ السِّرِّ ذائعٌ
وأرقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفاءُ جَيْأَلُ لديهم ولا الجاني بما جَر يخذل[1]

(1) **لامية العرب** للشنفرى.

ويقول الشنفرى عن إيثاره الحيوانات بالطعام واكتفائه بشرب الماء:

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكنْ بأعجلهم إذ أجشع القوم أعْجَل[1]

أُقَسِّم جسمي في جُسوم كثيرة وأحسو قَراح الماء والماءُ بارد

ومن روائع النصوص التي مثلت قوة السخاء والعطاء في الأدب العربي ما حكاه الحطيئة، حين وصف رجلا زاره ضيف ولم يكن له ما يقريه به، فتأسف لذلك وشكا ذلك إلى ولده، فدعاه الولد إلى أن يذبحه ويجعل لحمه طعاما للضيوف.

يقول الحطيئة:

رأى شَبَحاً وَسطَ الظَّلامِ فَراعَهُ فَلَمّا بَدا ضَيفاً تَشَمَّر وَاهتَمّا

فقالَ اِبنُهُ لَمّا رَآهُ بِحَيرَةٍ أَيا أَبَتِ اِذبَحني وَيَسِّر لَهُ طُعما

وَلا تَعتَذِر بِالعُدمِ عَلّ الّذي طَرا يَظُنُّ لَنا مالاً فَيوسِعُنا ذَمّا[2]

وأقرب إلى الواقع قصة الصحابي الذي أحال عليه النبي ﷺ ضيفا طرق ليلا، فلما لم يكن للصحابي ما يكفي أهله وضيفه، أوعز إلى زوجته أن تتظاهر بإصلاح السراج، وتتعمد إسقاطه وإطفاء ضوئه، فصار الصحابي يواكل ضيفه في الظلام والضيف يأكل وهو يحسَب الطعام كافيا، فلما لقي الصحابي النبيَ ﷺ قال له: ضحك الله الليلة

(1) **لامية العرب** للشنفرى.

(2) **ديوان الحطيئة** برواية ابن السكيت، تحقيق د. نعمان طه، ص. 237، مكتبة الخانجي، القاهرة 1987.

أو عجب من فَعالكما فأنزل الله: ويوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[1]. وهي قصة واقعية موثقة ليس فيها شيء من جنوح الخيال.

والشواهد الكثيرة التي يمكن جلبها تعطي تصورا واضحا عن طبيعة البيئة العربية التي جعلت البذل قيمة مجتمعية عالية.

يرى أستاذنا الدكتور عبد الله الطيب في كتابه القصيدة المادحة: أن المديح أصل في الشعر العربي، والحكمة قد تتخلله. وقد يختم بها حديثه، والفخر والرثاء والهجاء كل أولئك فروع منه أو تبع له أو منسوبات إليه.

وقد اعتُمد المديح أصالة لتهييج نزعة البذل والعطاء، يقول أبو تمام:

ولولا خلالٌ سَنهـا الشعر ما درى بُغـاةُ الندى من أيـن تُؤْتَى المكارم

يقول عبد الله الطيب: والمديح بما يحدثه من نشوة وارتياح من أجدى وسائل الدعوة إلى الخير والفضائل[2].

والمعنى أن المديح لم يكن في الأدب العربي غرضا مقصودا بالذات، وإنما كان وسيلة لتهييج نزعة الكرم في نفوسٍ مُحبة للغير وساعية إلى إسعاده.

---

(1) **صحيح البخاري** كتاب مناقب الأنصار، باب قول الله عز وجل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، رقم الحديث: 3798.

(2) **القصيدة المادحة** عبد الله الطيب، ص. 8، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم.

ويشهد لما يقوله عبد الله الطيب ما يذكره ابن رشيق في كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده في باب التكسب بالشعر والأنفة منه.

يقول ابن رشيق: «وكانت العرب لا تتكسب بالشعر، وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة، أو مكافأة عن يد، لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها»[1].

لكن النابغة الذبياني أنشأ مديح التكسب حتى قيل: إن الأعشى جعل الشعر متجرا يتجر به نحو البلدان، على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له بل استهجنه واستخف به[2].

واعتباراً لما لشعر المديح من قدرة على استنهاض الهمم وتقريبها إلى الخير، فقد كان المديح هو الأصل في الشعر، وبالمقابل كان كثير من الشعراء يرون الهجاء ضعة ومنقصة، فكانوا يأنفون منه كما هو شأن الشاعر عبدة بن الطبيب الذي كان يعتبر الهجاء منقصة أو ظلما للغير.

والمستخلص من هذا كله أن المديح يأتي على رأس أغراض الشعر وهو ليس في أصله إلا وسيلة باعثة على الكرم والعطاء.

(1) **العمدة** لابن رشيق، 80/1، دار الجيل، بيروت، ط.5، 1981.

(2) **نفسه**، 81/1.

كيف يحقق الإسلام سعادة المجتمعات حالياً؟

إن إسعاد الناس كما يدعو إليه الإسلام ليس مجرد فعل تبعث عليه عاطفة الفرد، ليسير سيرا عشوائيا غير مترسم لخطوات رؤية شاملة في الإسعاد.

والمتعين إبراز خطوات المشروع الإسلامي في إسعاد المسلمين وإسعاد البشرية.

وهذه الخطوات الكثيرة هي في حاجة ماسة إلى أن تكون واضحة في أذهان المبلغين عن الإسلام، ومن فقراتها:

1. إن الإسلام يقرر أصل المسؤولية الجماعية، ويدعو المسلم إلى الاهتمام بالآخرين وإلى الالتحام معهم، وإلى العمل المشترك معهم، وإلى الإحساس بمعاناتهم، وإلى العمل على التخفيف من ضغوط حياتهم.

فمن أسلوب الإسلام في الإقناع بالاجتماع والتضام، أن عبادات الإسلام تكتسب مكانة أكبر حينما تؤدى جماعيا، فصلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ وتزيد عليها بست وعشرين درجة، وخلال أداء صلاة الجماعة فإن الإسلام يمنع الشذوذ فيها، فلا يصلي المصلي منفردا لورود النهي عن ذلك، كما يتعين على المصلي مع جماعة أن ينتظم معها وينضبط بحركات الإمام، يقول النبي ﷺ: «إنما جُعل الإمام ليُؤْتمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا: ربنا ولك الحمد، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى قاعدا فصَلوا قعودا أجمعون»[1] كما لا يجوز للمصلي أن يسبق الإمام بحركة، فلا يرفع رأسه من ركوع أو سجود قبل أن يرفع الإمام رأسه، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك بقوله: أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار[2].

وإذا سلم المصلي قبل إمامه فإن صلاته تبطل لإخلاله بصورة الانتظام والانسجام مع الجماعة.

وفي شعيرة الصيام يبدو السلوك الجماعي جليا، فلا يصوم المسلم قبل أن يؤذن للصيام لثبوت الهلال ثبوتا شرعيا.

(1) **الجامع الصحيح** للترمذي، كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء إذا صلى الإمام قاعدا فصلوا قعودا، 194/2، تحقيق أحمد شاكر، رقم الحديث 361، دار الحديث، القاهرة.

(2) **صحيح مسلم** كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما، رقم الحديث 427.

وحين يؤدي الناس صلاة العيدين فإنهم يلتزمون بالجماعة أيضا، وعلى من يحضر صلاة عيد الأضحى ألا يذبح قبل أن يذبح الإمام أضحيته، فإن استبق الإمام بذبح فإنما هو لحم أكله، وليس له فيه معنى أداء شعيرة الأضحية.

وفي أداء ركن الحج يبدو المشهد الجماعي واضحا متفردا فيتحلق الحجاج حول الكعبة ويصلون خلف إمام واحد، وكل هذا يشعر بأهمية الانخراط مع الجماعة.

وفي باقي الشعائر يمنع المسلم من الشذوذ والشرود عن الجماعة فيقول النبي ﷺ: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار»[1].

ومن حقائق علوم الحديث أن المحدث إذا خالف مرويُّه مروي الثقات الكثيرين، أو خالف مروي من هو أوثق، فإن حديثه ذلك يسمى حديثا شاذا، لا يدرج في أقسام الحديث الصحيح.

وفي الأخذ بحقائق الإسلام وقطعياته، فإن الذي يشذّ عن الجمهور يُترك فكره، إذ من المستبعد أن يكون الحق إلى جانب شخص، وتكون الأمة كلها مخطئة، وقد قيل لا يأتيك الحديث الشاذ إلا من الرجل الشاذ. يقال هذا في الرواية وفي الآراء كذلك.

(1) **الجامع الصحيح** للترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، 194/2، تحقيق أحمد شاكر، رقم الحديث 2167، دار الحديث، القاهرة.

وبهذا الاعتبار كان الإجماع أصلا من أصول التشريع، ويبقى الإجماع مصونا فلا ينقض بإجماع آخر.

وتنتظم الشريعة الإسلامية أحكاما كثيرة تتأسس على اعتبار الفرد جزءا من المجتمع، ومسؤولا عما يقع فيه، حتى وإن اعتزله وانتحى عنه.

من أمثلة هذا في أبواب الفقه أنه إذا عثر على قتيل في محلَّة و لم يعرف قاتله، فإن الرجال من أهل المحلة يشهدون أنهم لم يقتلوه، وأنهم لا يعرفون قاتله، ويقسمون على ذلك، ولذلك سمي هذا الحكم قسامة.

ثم إن دِيَةَ القتيل تقسم على الذكور، فإن تساءل البعض عن السند الشرعي لتحميل أهل المحلة نتيجة فعل لم يشاركوا فيه و لم يعلموا من الذي فعله، فإن الجواب هو: إن لم يكونوا قاتلين أو مشاركين في القتل، فإنهم كانوا مسؤولين عن توفير الأمن، إما بتأجير حراس، أو بالتناوب على الحراسة، وكل هذا يفيد أن الإسلام يتعامل مع الناس على أنهم جماعة بشرية متكافلة، وأنهم ليسوا مجرد أفراد متناثرين.

ومن قبيل ما توجه به الإسلام إلى الناس على أنهم كتلة اجتماعية وأن لهم مسؤولية جماعية مشتركة، أنهم مطالبون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على أساس أنه فرض كفائي اجتماعي.

وهم مطالبون بتوفير حاجات المجتمع الجماعية، فإن عدم فيهم العلم أو الطب أو الأمن فإنهم مسؤولون عن توفير ذلك.

وينتظم الفرض الكفائي كل الحاجات الاجتماعية، ابتداء من مساندة من يوجدون في حالة خطر يهدد حياتهم، مروراً بمعالجة المرضى الذين تنخر أجسامهم الأمراض الفتاكة، ووصولا إلى القيام بمتطلبات الجنائز، وانتهاء بحماية مكونات المجال، من نبات وزرع وحيوان، ما لم يكن لاقتلاعه سبب وجيه.

إن هذه الرؤية الاجتماعية في الإسلام، هي التي يجب الارتكان إليها للإقناع بوجوب أداء أمانة التبليغ.

كيف يحقق الدين سعادة الناس؟

لقد انتهت بعض مدارس علم الاجتماع الحديثة غير المسكونة بعقدة معاداة الدين، إلى القول بأن للدين تأثيرا واضحا في بناء الحضارات، وفي تميزها عن غيرها.

فكان ماكس فيبر (1920) عالم الاجتماع الألماني يدرس الحضارات من زاوية تأثير الدين فيها، فانتهى إلى أن المناطق التي سادت المسيحية البروتستانية فيها كانت أسرع تطورا وارتقاء من المناطق التي عمت فيها الكاثوليكية أو الأرثودكسية، لأن البروتستانية كانت أكثر تحررا من القيود التي رسفت فيها الكاثوليكية.

وبعد شيوع نظرية فيبر، برز في الغرب تيار فلسفي حديث، دعا إلى استدماج الدين واستحضاره في وضع الخطط الاجتماعية والسياسية والمالية والثقافية، وذلك هو ما يكفل تطبيق مبدأ الديموقراطية، لأن

الشعوب فيها فئات كثيرة تومن بأهمية الدين وتنصاع لأحكامه، فمن ثم كان إهمال تطلعاتها الدينية وإقصاء آرائها تنكرا للديموقراطية التي هي حكم الشعب، لا حكم طيف من الشعب، ولا حكم فئة من فئاته.

وقد نادى الفيلسوف يورغن هابرماس بضرورة إقحام الدين في الفضاء العمومي السياسي، وعبر عن ذلك في كتاب ألفه مع أصدقائه جوديت بتلر، وكورنيل ويست، وشارلز تايلر، وسماه: «**قوة الدين في المجال العام**» وقد أحدث هذا الكتاب رجة في الأوساط العلمانية التي يقوم مذهبها على إقصاء الدين عن كل ما هو عمومي، وقصره على الذات دون الفردية[1].

ومن قبل أن يدعو هؤلاء الفلاسفة إلى استحضار قوة الدين، واستخدامها في التغيير الإيجابي بزمن بعيد، كان بعض علماء المسلمين أكثر تقدما إذ رأوا أن أحكام الفقه هي أكثر لصوقا بالشأن المدني، وبالمجال العام.

وكان أبو حامد الغزالي (505 هـ) يرى أن الفقه وإن كان معدودا في علوم الدين، فإنه في حقيقته وجوهره هو علم دنيوي يقود الحياة إلى تحقيق العدل ويخلصها من داء الشهوات والرغبات الذاتية.

(1) **قوة الدين في المجال العام** يورغن هابرماس وآخرون، ط.1، 2013، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

يقول الغزالي: «إن البشر خلقوا ليعمروا الأرض ويصلحوها، لكن الشهوات غلبتهم، فتولدت الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق، إذا تنازعوا بحكم الشهوات»[1].

وإن المتأمل في واقع الأمة الإسلامية لا يفوته أن يلحظ تفاوتا كبيرا وتباينا واقعا بين ما يعتقده المسلمون وما يقولون به من قيم سامية، وما يومنون به من مبادئ راقية، وبين ما يعيشونه في واقعهم، وهو واقع يعج بالتناقضات وبالاختلالات في السلوك المدني.

وأخذاً بما قال به الغزالي، وما قال به الأمام مالك من قبله، من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وهو الكتاب والسنة، فإن هذا يرتب على العاملين على معالجة الاختلالات التي تعيشها المجتمعات الإسلامية أن ينهضوا بمشروع كبير هو مشروع التقاط القيم والمبادئ التي وردت في الكتاب والسنة، وإحالتها إلى قيم صالحة تقود الحياة وضخها في الواقع الاجتماعي للمسلمين.

فإذا كان الفرد المسلم لا يرى بأسا ولا حرجا في أن يخالف قواعد المرور فيتجاوز السرعة المسموح بها، ويمر في المسالك التي يمنع عليه أن

(1) **إحياء علوم الدين** لأبي حامد الغزالي، 17/1، دار المعرفة، بيروت 1982.

يمر فيها، ويرى كل ذلك أمرا هينا، ما دامت الشرطة التي تراقبه وتعاقبه غائبة عن المشهد.

فالواجب تذكير هذا المتجاوز أن فعله ذلك يندرج في خانة الفعل المحرم حرمة شرعية، لأن هذا الذي يتجاوز ويهدر قانون المرور قد سبق له أن طلب تمكينه من رخصة السياقة، وامتحن في معرفته بقانون السير، ثم أعطى تعهده أن يحترم قوانين المرور، وبموجب ذلك التعهد منح رخصة السياقة، وبهذا تكون مخالفة قانون السير نقضا للعهد الذي قطعه المسلم على نفسه، وذلك معصية نهى عنها القرآن بقول الله تعالى:

﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾

[سورة الإسراء، الآية 34].

وبقوله:

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [سورة النحل، الآية 91].

وفي غير ذلك من النصوص التي منحت العهد مكانة في الشريعة.

مثل هذا القول يقال لمن أساء معاملة زوجته، ولمن أساءت معاملة زوجها، والواجب تذكيرهما بما تضمنته كلمة الميثاق الغليظ الواردة في قوله تعالى:

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [سورة النساء، الآية 21].

والأكيد أن من مقتضيات الميثاق الذي أعطاه كل زوج لصاحبه حسن العشرة والمعاملة بالمعروف.

وإذا كان الإنسان المسلم يقصد إلى مغاضبة زوجته، وإلى تعنيفها وتأكيد رجولته، فإنه لا بد أن يبصر بأن هذا الفعل العنيف يقع على الخلاف من سلوك النبي ﷺ، لأن النبي ﷺ لم يكن يسعى إلا إلى إرضاء أزواجه في نطاق الحلال.

وقد ذكره القرآن بهذا فقال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التحريم، الآية 1].

الآية شاهدة على أن النبي ﷺ كان يسعده إرضاء أزواجه.

وإذا كان المسلم يدمر مكونات البيئة مستخفّاً بوجودها، فالواجب تعريفه أنها مظهر القدرة الإلهية، وأنها دليل على وجود الله وقدرته وحكمته، وقد استند القرآن إليها في إبراز شواهد حكمة الخلق فقال الله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [سورة النحل، الآية 81].

وقال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ

شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 100].

فلذلك يكون الإجهاز على مكونات البيئة مطاوعة لداعي الهوى وللرغبة في الاستكثار من المال مشمولا بفعل الإفساد في الأرض، الذي نهى عنه القرآن، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة، الآية 203].

ولهذا السبب كان قطع الشجر لغير داع صحيح أمرا لا يجوز إلا بعد حصول إذن بالقطع، وحين قطع رسول الله ﷺ نخلا كان يحول بينه وبين الوصول إلى هدفه، فإنه لم يقدم على ذلك إلا بعد أن أذن الله له في ذلك القطع. يقول الله تعالى:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [سورة الحشر، الآية 5].

وأخذاً من هذا، فإن قطع الأشجار المستقرة التي لا تحدث للإنسان ضرراً هو أمر يحتاج إلى إذن من الدولة، لئلا يصير القطع إفسادا في الأرض.

وإذا كان المسلم لا يبالي أن يلوِّث الجو بقذف أهوية فاسدة متعفنة أو أدخنة كثيفة تضر بسلامة التنفس، فإنه يجب أن يُعلم بأن وجود الأدخنة في الجو هو ضرب من الإضرار والتعذيب للإنسان وللحيوان، لأن الله سمى الأدخنة الكثيفة عذابا فقال الله تعالى:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَاتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الدخان، الآية 9-10].

وإذا كان الإنسان المسلم يستعمل الماء بأكثر مما تدعو إليه الحاجة، فإن ذلك معدود شرعا في خطيئة الإسراف والتبذير، وقد قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص وقد رآه يسرف في استعمال الماء: وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف؟ فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار[1].

وقد سمى النبي ﷺ التجاوز في الوضوء اعتداء فقال: إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطَّهور والدعاء[2].

وبالإمكان سوق نماذج أخرى كثيرة مما ييسر تحقيق مصلحة الناس وإسعادهم انطلاقا من قيم الإسلام، والهدف هو إبراز أن الدين حينما يفهم فهما جيدا فإنه يتيح إمكانات تيسير الحياة من جهة، وإسعاد الإنسان المسلم فيها من جهة ثانية.

(1) **سنن ابن ماجه** كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصر في الوضوء وكراهية التعدي فيه، رقم 425.

(2) **سنن أبي داوود** كتاب الطهارة، باب الإسراف في الماء، رقم 96.

والمبلِّغون مطالبون اليوم بقراءة الألفاظ التي فهمت على غير وجهها فحدّت من انتشار الشريعة، وهذا مشروع واسع يجب الاشتغال عليه.

إن إعادة تصحيح قراءة كثير من المفردات التي أخذها الناس أخذا خاطئا هو مشروع دعا إليه أبو حامد الغزالي، فصدّر كتابه «إحياء علوم الدين» بباب أسماه: «بيان ما بُدل من ألفاظ العلوم»، فعرض فيه خمسة ألفاظ، غيرت بعض معانيها بالتضييق أو التوسيع، ومنها ألفاظ الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة[1].

ولعل أهم مصطلح يجب البدء به في إقامة مشروع ضبط المفاهيم الشرعية وإحالتها على التنفيذ في المجتمع المدني، هو مصطلح الدين نفسه، وهو مصطلح شابه قصور كبير حينما حجِّم وبقي الدين مرتبطا بما هو أخروي غيبي، وانحسر تأثيره عن الحياة المدنية التي قادتها تيارات أخرى.

وكان هذا السبب المباشر في تحلل الحياة المدنية من قيم الدين وأحكامه وهو ما أفضى إلى الخلل الكبير الواقع في ابتعاد حياة الناس عن الإسلام قيما وتشريعا وممارسة.

(1) **إحياء علوم الدين** لأبي حامد الغزالي، 32/1، دار المعرفة، بيروت 1982.

وبعد،

فما سُقْته هو مجرد أمثلة مما يمكن تحويله من قيم إسلامية إلى الفضاء المدني، وهي أمثلة لا تعدو أن تكون أمثلة، والمثال لا يخصِّص كما هو معروف، وبالإمكان أن تتخذ الأمثلة السابقة منوالا تنسج عليه نماذج أخرى مما يصلح أن يكون مشروعا يستهدف تجسير الهوة بين الحياة المدنية والقيم الإسلامية. وهذا مشروع يفرض أن يعود المشتغلون عليه إلى ما تقدمه المكتبة التراثية الإسلامية من حقائق لم يتعامل المسلمون معها إلا على أنها فقه لا يمتد إلى جوانب الحياة، ولذلك يظل قابعا في فكر العلماء وفي بطون المصنفات، ولا يكون له امتداد أبعد من هذا، ولا يمكن الاستفادة منه في أكثر من ترجيعه ذهنيا والانتشاء بتمجيده فقط.

ولو عدنا إلى الكثير من المصادر الإسلامية لوجدنا فيها ثروة زاخرة يمكن توظيفها في ضبط الحياة المدنية وتوجيهها إلى الخير.

فلو أخذنا مثالا من كتاب «**الإعلان بأحكام البنيان**» لابن الرامي، وحللنا مضامينه لوجدنا فيه حقائق كثيرة تصلح لمعالجة اختلالات البيئة ومكافحة التلوث الجوي والصوتي، وكثير من صور إفساد المجال.

وحين يعيد الناس قراءة ما في الكتاب على أنه فقه إسلامي ويحولوا ذلك إلى سلوك مدني، فإنهم يسعدون بذلك.

وكتبه: مصطفى بن حمزة.

المصادر والمراجع

- **أبكار الأفكار** سيف الدين الآمدي، تحقيق أحمد محمد المهدي، دار الكتب والوثائق المصرية، 2002.
- **الأجوبة المسكتة** ابن أبي عون الكاتب، تحقيق عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- **إحياء علوم الدين** لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت 1982.
- **الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار** يحي بن شرف الدين النووي.
- **الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام** عبد العلي وافي، نهضة مصر، 2002.
- **الإشارات والتنبيهات** لأبي علي ابن سينا مع شرح نصير الدين الطوسي، القسم الرابع، تحقيق سليمان دنيا، ط. 3، دار المعارف، مصر.
- **أليس الصبح بقريب** محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط. 4، 2015.
- **أنوار البروق في أنواع الفروق** لشهاب الدين القرافي، طبع دار المعرفة.

- **التراتيب الإدارية** عبد الحي الكتاني، دار الكتاب العربي، بيروت.
- **التوقيف على مهمات التعاريف** لعبد الرؤوف المناوي، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، 1960.
- **الجامع الصحيح** للترمذي، تحقيق أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.
- **الجامع الكبير** لمحمد بن عيسى الترمذي، تحقيق عواد بشار معروف، ط. دار الغرب الإسلامي، 1996.
- **ديوان أبي العلاء المعري.**
- **رحلة ابن خلدون شرقا وغربا** لابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت 2004.
- **السائل وتهذيب المسائل** لابن خلدون، تحقيق د. محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق 1996.
- **سبل الهدى والرشاد** محمد بن يوسف الصالحي.
- **السعادة** لابن مسكويه، نسخة سيد علي الطبجي السيوطي، ط. 2، المطبعة العربية بمصر، 1928.
- **السعادة** مسكويه، نسخة أبي يعرب.
- **سنن ابن ماجه**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- **سنن أبي داود.**
- **سنن الترمذي.**

- **سير أعلام النبلاء** للذهبي، مؤسسة الرسالة، ط. 4، 1986.
- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** القاضي عياض اليحصبي، **مع مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا** لأحمد الشمني، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **شفاء السائل بتهذيب المسائل** لعبد الرحمن بن خلدون، تحقيق أبي يعرب المرزوقي، الدار العربية للكتاب، 1991.
- **الشمائل المحمدية** للحافظ الترمذي، المكتبة العصرية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 2018.
- **صحيح البخاري**.
- **صحيح مسلم** كتاب الجنة وصفة نعيمها، الحديث 2865.
- **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ** السمين الحلبي، تحقيق د. محمد التونجي، عالم الكتب، بيروت 1993.
- **عمدة المريد شرح جوهرة التوحيد** إبراهيم اللقاني، تحقيق عبد المنان الإدريسي، دار النور المبين، عمان، الأردن 2016.
- **العمدة** لابن رشيق، دار الجيل، بيروت، ط. 5، 1981.
- **عون المريد شرح جوهرة التوحيد** عبد الكريم تتان ومحمد أديب الكيلاني، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق 1994.
- **عيون المناظرات** أبو علي عمر السكوني، تحقيق سعد غرَاب، منشورات الجامعة التونسية، 1976.

- **الفروق** للقرافي، عالم الكتب، بيروت.
- **الفصل في الملل** لابن حزم، تحقيق عبد الرحمن اعميرة، دار الجيل، بيروت 1985.
- **قصة الحضارة** ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، الباب الثالث والعشرون، الكتاب الخامس، ط. مهرجان القراءة للجميع، القاهرة 2001.
- **القصيدة المادحة** عبد الله الطيب، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم.
- **كتاب الأخلاق** لأحمد أمين، مذهب السعادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر، ط. 8، 1958.
- **كشاف اصطلاحات الفنون** محمد بن علي التهانوي، نسخة أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت 2006.
- **الكليات** لأبي البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، 1999.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت 1982.
- **محاضرات فلسفة الأخلاق** د. إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة، القاهرة 1974.

- **المصنفات المغربية في السيرة النبوية ومصنفوها** الدكتور محمد يسف.
- **المعجم الفلسفي** جميل صليبا، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. 1، 1973.
- **المعجم الكبير** للطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط. 2، 1985، شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، العراق.
- **معجم المناهي اللفظية** بكر أبو زيد، دار العاصمة، ط. 3، الرياض 1996.
- **مقاربات في المسألة الأخلاقية** مصطفى بن حمزة، دار الأمان، الرباط 2019.
- **مقاصد الشريعة الإسلامية** محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر.
- **مقدمة سيد علي الطوبجي لكتاب السعادة** لابن مسكويه، المطبعة العربية بمصر، 1928.
- **الملل والنحل** للشهرستاني، تحقيق عادل إبراهيم، مكتبة فياض، المنصورة 2013.
- **منح الجليل شرح مختصر خليل** محد عليش.
- **الموافقات** لأبي إسحاق الشاطبي، المقدمة العاشرة، تحقيق أبي عميرة آل سلمان، دار ابن عفان، الخبر، السعودية، ط. 1، 1997.
- **موسوعة المصطلح في التراث العربي الديني والعلمي والأدبي** د. محمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء.
- **موسوعة لالاند الفلسفية** مطبوعات عويدات للنشر، بيروت 2012.

فهرس

- ❑ تقديم وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية.....9
- ❑ بين يدي البحث حياة الرسول مساحة زمانية للتبليغ.....13
- ❑ القسم الأول: تأصيل أمانة التبليغ.....17
  - • التبليغ في اللغة وفي الاصطلاح المتخصص.....19
  - • التبليغ في مصادر التعاريف.....21
  - • جانب التبليغ في أركان العقيدة.....27
  - • التبليغ في أعمال الرسل.....29
  - • التبليغ باعتباره صفة ذاتية في الرسل.....31
  - • احتياطات لتحقق التبليغ.....35
  - • التبليغ من خلال الكتاب والسنة.....39
  - • التبليغ في نصوص القرآن الكريم.....41

➢ تبليغ القرآن.....43

• مواصفات التبليغ القرآني.....45

– الحقيقة الأولى من حقائق التبليغ: نوعية لغة التبليغ في القرآن....47

– الحقيقة الثانية من حقائق التبليغ: حاجة التبليغ الجيد إلى التفكير والتخطيط القبلي.....55

– الحقيقة الثالثة من حقائق التبليغ: تعدد خطط التبليغ من خلال القرآن الكريم.....59

– الحقيقة الرابعة من حقائق التبليغ: ضرورة تعدد المبلغين وتآزرهم من إشارات القرآن.....63

• التبليغ في عمل الرسول ﷺ.....73

• مصنفات السيرة وعاء مادة التبليغ.....75

➢ أداء التبليغ النبوي.....79

– الجانب الأول من التبليغ النبوي: التعليم وسيلة لترقية مدارك الناس ومدرج للتبليغ الجيد.....81

– الجانب الثاني من التبليغ النبوي: ارتباط تبليغ الرسول ﷺ بشخصيته الفذة.....84

– الجانب الثالث من التبليغ النبوي: البذل والعطاء في شخص الرسول شاهد على صدق الرسالة.....87

- الجانب الرابع من التبليغ النبوي: مسؤولية خطاب التبليغ عن إنجاح التبليغ أو تعويقه.....89

❑ القسم الثاني: تنزيل أمانة التبليغ.....93

• المقصد الأسمى والأفق الأعلى لأداء أمانة التبليغ.....95

• غايات التبليغ من حياة الإنسان.....97

• هدف التبليغ الأسمى.....99

• تحقيق السعادة باعتبارها هدفا للتبليغ، ومطلبا لكل إنسان 101

• أهمية السعادة في حياة الإنسان من خلال إفادات القرآن الكريم 103

• تعريف السعادة في الفكر الإنساني.....107

- تعاريف السعادة: الدلالة اللغوية والمفهوم الاصطلاحي 109
- تعاريف السعادة في التراث الاسلامي.....110
- السعادة في مدارس الأخلاق 111

• حقيقة السعادة في مصادر التراث الإسلامي.....115

- فلسفة السعادة كما يراها مسكويه 115
- السعادة القصوى في فكر بن خلدون.....117

• من السعادة إلى الإسعاد.....121

• كيف يحقق الإسلام سعادة المجتمعات حاليا.....127

• كيف يحقق الدين سعادة الناس؟ 133

❑ وبعد..... 141
❑ المصادر والمراجع..... 143
❑ فهرس..... 149